سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

أمين الأمة

وشخصيات أخرى



الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

أمين الأُمَّة

وشخصيّات أخرى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ
فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم
مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص . ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٤١٢٥ / ١٩٩٧

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٨٧ - X

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

رياض الإيمان

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

أمين الأُمَّة
وشخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الكاملُ

أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ

سَيِّدٌ مِنْ ساداتِ الأَوْسِ ، وشَرِيفٌ مِنْ أَشْرافِها ، وزَعيمٌ مِنْ زُعَمائِها . لَقَّبَتْهُ القَبيلَةُ بالكامِلِ ؛ لأَنَّهُ كانَ راجِحَ العَقْلِ ، حَصيفَ الرَّأْيِ ، نَبيلَ الأَصْلِ ، عالِيَ الهِمَّةِ . جَمَعَ بَيْنَ فُروسِيَّةِ السَّيْفِ، ودِقَّةِ تَصْويبِ الرُّمْحِ، وبَيْنَ الكِتابَةِ والقِراءَةِ ؛ فَقَدْ كانَ قارِئًا كاتِبًا في مُجْتَمَعٍ نَدَرَتْ فيهِ القِراءَةُ والكِتابَةُ .

وكَما كانَ كامِلاً في جاهِلِيَّتِهِ كَذَلِكَ كانَ كامِلاً في إِسْلامِهِ ، فَما إِنْ صافَحَتْ مَسامِعَهُ كَلِماتُ اللهِ النَّدِيَّةُ – حَتّى تَشَرَّبَتْها روحُهُ كَما تَتَشَرَّبُ الأَرْضُ الظَّمْأى قَطَراتِ المَطَرِ ، وتَفَتَّحَتْ نَفْسُهُ للإِسْلامِ تَحْتَضِنُهُ ، كَما تَتَفَتَّحُ الزَّهْرَةُ لِتَحْتَضِنَ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ . ولَمْ تَلْبَثْ يَنابيعُ الخَيْرِ أَنْ

تَفَتَّحَتْ فيها لِتَسْتَقْبِلَ إِشْعاعاتِ الحَقِّ والفَضيلَةِ والجَمالِ !

ذَلِكَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ مَعَ الأَنْصارِ بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأولى – مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ ؛ لِيُقْرِئَهُمُ القُرْآنَ ، ويُعَلِّمَهُمْ أَحْكامَ الإِسْلامِ ، ويَدْعُوَ إِلى الدِّينِ . وكانَ مُقامُهُ في بَيْتِ « أَسْعَدَ بْنِ زُرارَةَ » ، واجْتَمَعَ النّاسُ عَلَيْهِ لِما لَمَسوهُ فيهِ مِنْ خُلُقٍ وَضيءٍ رَفيعٍ ، وصَوْتٍ عَذْبٍ نَدِيٍّ بالقُرْآنِ الكَريمِ ، وحَلاوَةِ حَديثٍ ، ونَصاعَةِ بَيانٍ ، وهُوَ يَجْلو تَعاليمَ الإِسْلامِ .

وذاتَ ضُحًى خَرَجَ بِهِ « أَسْعَدُ بْنُ زُرارَةَ » إِلى بُسْتانٍ مِنْ بَساتينِ بَني عَبْدِ الأَشْهَلِ ، وجَلَسا عِنْدَ بِئْرِهِ العَذْبَةِ ، والْتَفَّ حَوْلَهُما القَوْمُ ، فيهِمُ الْمُسْلِمُ الَّذي يَسْتَزيدُ عِلْمًا، وفيهِمْ مَنْ جاءَ راغِبًا في الإِسْلامِ . وكانَ هُناكَ رَجُلانِ يَنْظُرانِ : سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ ، وأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ، وهُما سَيِّدا بَني عَبْدِ الأَشْهَلِ ، فَقالَ سَعْدٌ :

« أَ تَرى ما أَرى ، يا أُسَيْدُ ؟ لَقَدْ جاءَ هَذا الفَتى الْمَكِّيُّ

إلى دِيارِنا ؛ لِيُسَفِّهَ دِينَنا ، ويُغْرِيَ ضُعَفاءَنا بِالدُّخولِ في الدِّينِ الَّذي جاءَ بِهِ . اِذْهَبْ إلَيْهِ ، يا أُسَيْدُ ، وحَذِّرْهُ ومَنْ مَعَهُ مِن اقْتِحام دِيارِنا مَرَّةً أُخْرى . . إنَّهُ لَوْلا أَنَّهُ جاءَ مَعَ «‹ أَسْعَدَ بْنِ زُرارَةَ ›» وهُوَ ابْنُ خالَتي - لَكَفَيْتُكَ مَئونَةَ ذَلِكَ . »

وانْطَلَقَ « أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر » ؛ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ « سَعْد » ، واسْتِجابَةً لِدافِعٍ خَفِيٍّ قَوِيٍّ يَمْلِكُ عَلَيْهِ أَقْطارَ نَفْسِهِ . وحينَ أَبْصَرَهُ « أَسْعَدُ بْنُ زُرارَةَ » قادِمًا - قالَ لِمُصْعَب :

« لَقَدْ جاءَكَ سَيِّدُ القَوْمِ ، وصاحِبُ رَأْيِهِمْ ومَشورَتِهِمْ . إنَّهُ إنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ أَسْلَمَ بِإسْلامِهِ خَلْقٌ كَثيرٌ؛ فَأَحْسِنِ التَّأَنِّيَ لَهُ ، واصْدُقِ اللهَ فيهِ . »

وَقَفَ « أُسَيْدٌ » عَلى مَجْلِسِ « أَسْعَدَ » وأَصْحابِهِ ، ورَكَّزَ حَرْبَتَهُ ، ثُمَّ قالَ :

« يا أَسْعَدُ ، ما لَكَ تَقْتَحِمُ بِصاحِبِكَ الْمَكِّيِّ عَلَيْنا دِيارَنا ؟ لا تَعودا لِمِثْلِها إنْ كانَتْ لَكُما رَغْبَةٌ في الحَياةِ . »

نَظَرَ إلَيْهِ « مُصْعَبٌ » بِعَيْنَيْنِ صافِيَتَيْنِ يَشِعُّ مِنْهُما النّورُ ، و وَجْهٍ مُشْرِقٍ يَتَلأْلأُ فيهِ نورُ الإيمانِ ، وقالَ لَهُ :

« يا سَيِّدَ القَوْمِ ، هَلْ لَكَ في خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ »

قالَ « أُسَيْدٌ » وقَدْ لانَتْ نَبْرَتُهُ ، و انْكَسَرَتْ حِدَّةُ صَوْتِهِ : « وما هُوَ ؟ »

أَجابَهُ « مُصْعَبٌ » وقَدْ طَمِعَ في إسْلامِهِ :

« تَجْلِسُ إلَيْنا وتَسْمَعُ مِنّا ، فَإنْ رَضيتَ قَوْلَنا قَبِلْتَهُ ، وإنْ لَمْ تَرْضَهُ تَحَوَّلْنا عَنْكُمْ ، ولَمْ نَعُدْ إلَيْكُمْ . »

قالَ « أُسَيْدٌ » : « لَقَدْ أَنْصَفْتَ . »

جَلَسَ « أُسَيْدٌ » فَعَرَضَ عَلَيْهِ « مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْر » الإسْلامَ ، وبَيَّنَ لَهُ ما يَدْعو إلَيْهِ مِنْ مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، وجَميلِ الصِّفاتِ ، وإخْلاصِ العِبادَةِ للهِ وَحْدَهُ . . ثُمَّ تَلا عَلَيْهِ آياتٍ بَيِّناتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ ، بِصَوْتِهِ الرّائِقِ الشَّجِيِّ ؛ فَأَشْرَقَ وَجْهُهُ ، وانْبَسَطَتْ أَساريرُهُ ، وقالَ :

« ما أَحْسَنَ ما قُلْتَ ! وما أَجْمَلَ ما تَلَوْتَ ! ماذا يَفْعَلُ

المرءُ حينما يُريدُ الدُّخول في دينكُمْ ؟»

أجابهُ مُصْعَبٌ : « يغتَسِلُ ويتطهَّرُ ، ويُطَهِّرُ ثِيابَهُ ، وينْطِقُ شَهادَةَ الحَقِّ ، ويُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ . »

واغْتَسَلَ « أُسَيْدٌ » مِنْ ماءِ البِئْرِ ، ونَطَقَ شَهادَةَ الحَقِّ ، وصلّى رَكْعَتَيْنِ . وكانَ إسْلامُهُ سَبَبًا في إسْلام « سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ » (١) ، وكانَ إسْلامُهُما سَبَبًا في إسْلام بَني عَبْدِ الأَشْهَلِ ، فَلَمْ تَبِتْ مِنْهُمْ دارٌ إلا وفيها صَلاةٌ قائِمَةٌ ، وقُرْآنٌ يُتْلى .

* * *

اِسْتَضاءَتْ نَفْسُ « أُسَيْدٍ » بالإسْلام ، وتَذَوَّقَ قَلْبُهُ حَلاوَةَ الإيمانِ ، فَسَعى مَعَ « مُصْعَبٍ » إلى مَكَّةَ ؛ لِيَلْقى الرَّسولَ ﷺ ويُبايِعَهُ ، فَشَهِدَ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثّانِيَةَ ، وكانَ أَحَدَ النُّقَباءِ . ثُمَّ عادَ إلى يَثْرِبَ (الْمَدينَةِ) يَنْتَظِرُ مَقْدَمَ رَسولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْمُنْتَظِرينَ .

(١) انظر سيرته في كتابنا : الشهيد الحي (رياض الإيمان) .

واسْتَحْوَذَ القُرْآنُ الكَريمُ عَلى نَفْسِ « أُسَيْدٍ » وقَلْبِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلى حِفْظِهِ وتِلاوَتِهِ إقْبالاً شَديدًا ، واسْتَحالَ بِتَذَوُّقِهِ القُرْآنَ وتَسَرُّبِهِ في حَناياهُ - كائِنًا نورانِيًّا شَفّافًا ، يَشِعُّ بالجَمالِ والطُّهْرِ والعَفافِ . وكانَ لا يُرى إلا مُجاهِدًا غازِيًا في سَبيلِ اللهِ ، وإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، أَوْ عاكِفًا يُناجي رَبَّهُ بِكَلِماتِهِ !

وكانَ رَخيمَ الصَّوْتِ ، مُبينَ النُّطْقِ ، حُلْوَ الأَداءِ ، تَطيبُ لَهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ وتَرْتيلُهُ حينَما يَسْكُنُ اللَّيْلُ ، وتَهْدَأُ الحَرَكَةُ ، وتَنامُ العيونُ ، ويَخْشَعُ الوُجودُ ، وتَصْفو النُّفوسُ ، وتَرِقُّ الأَرْواحُ .

وكانَ الصَّحابَةُ - رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - يَتَرَقَّبونَ أَوْقاتَ تِلاوَتِهِ ، ويَتَحَيَّنونَ الفُرْصَةَ لاسْتِماعِهِ ، فَهُمْ يُحِسّونَ القُرْآنَ الكَريمَ رَطْبًا كَما أَنْزَلَهُ اللهُ على قَلْبِ النَّبِيِّ الكَريمِ .

وكَما أُعْجِبَ أَهْلُ الأَرْضِ بتَرْتيلِهِ وتِلاوَتِهِ ، وتَسابَقوا إلى الاسْتِماعِ إلَيْهِ - كَذَلِكَ تَسابَقَ أَهْلُ السَّماءِ إلَيْهِ ،

وتَجسَّدَتِ السَّكينةُ بَيْنَ يَدَيْه . . تسابَقَ الجَميعُ إلى هَذا الكائِنِ النّورانِيِّ الشَّفّافِ ، الَّذي كانَتْ عَصاهُ تُضيءُ لَهُ الطَّريقَ ، فَيَمْشي في ضَوْئِها : يُضارِعُهُ في ذَلِكَ ويُساميه صاحِبُهُ « عَبّادُ بْنُ بِشْرٍ »(١) ، فَقَدْ خَرَجا ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ عِنْدِ رَسولِ الله ﷺ ، وكانَتْ ذاتَ ظَلامٍ دامِسٍ ، فَأضاءَتْ لَهُما عَصا أَحَدِهِما فَمَشَيا في ضَوْئِها ، فَلَمّا تَفَرَّقَ بِهِما الطَّريقُ أَضاءَتْ لِكُلٍّ مِنْهُما عَصاهُ ، فَمَشى في ضَوْئِها .

كانَ « أُسَيْدٌ » يَسْتَشْعِرُ وِقْفَتَهُ الخاشِعَةَ بَيْنَ يَدَيْ بارِئِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، وهُوَ يُناجيهِ بِكَلِماتِه ، ويَتَضَرَّعُ إلَيْهِ بِآياتِهِ ، فَإذا خُشوعُهُ وضَراعَتُهُ قَدِ اسْتَحالا عُذوبَةً في صَوْتِهِ ، وحَلاوَةً في نَبْرَتِه ، وإذا سامِعُهُ يَسْبَحُ مَعَهُ في مَلَكوتِ اللهِ ، ويَشْعُرُ مَعَهُ بِجَلالِ الخالِقِ وكَمالِه ، وكَأَنَّما اسْتَحالَ كائِنًا نورانِيًّا ، لا تَرْبِطُهُ بِالأَرْضِ صِلَةٌ مِنْ قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ !

(١) انظر سيرته في كتابنا : « صديق القرآن » (رياض الإيمان) .

في إحْدى اللَّيالي كانَ « أُسَيْدٌ » جالِسًا بِفِناءِ بَيْتِه ، وإلى جِوارِهِ ابْنُهُ يَحْيى قَدِ اسْتَغْرَقَ في نَوْمِهِ ، وفَرَسُهُ الَّتي أَعَدَّها لِلْجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مَرْبوطَةٌ بِجانِبِهِ ، وكانَتِ السَّماءُ صافِيَةً ، تَلْمَعُ نُجومُها ، وتَنْظُرُ إلى الأَرْضِ في رِفْقٍ وحَنانٍ . . حينَئِذٍ هَفَتْ نَفْسُهُ إلى تِلاوَةِ القُرْآنِ ، وتاقَتْ لأَنْ تُعَطِّرَ أَنْفاسَ اللَّيْلِ بِعِطْرِهِ ، وانْطَلَقَ صَوْتُهُ في ضَراعَةٍ وابْتِهالٍ يَتْلو قَوْلَ اللهِ عَزَّ و جَلَّ :

﴿ الٓمٓ . ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلْمُتَّقينَ . الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِالْغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ . والَّذينَ يُؤْمِنونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يوقِنونَ . ﴾ البقرة (١ – ٤)

وإذا هُوَ يَسْمَعُ فَرَسَهُ قَدِ اضْطَرَبَتْ ودارَتْ دَوْرَةً كادَتْ مَعَها أَنْ تَقْطَعَ رِباطَها ، فَسَكَتَ ، فَسَكَنَتِ الفَرَسُ واسْتَقَرَّتْ !

فَعادَ يَقْرَأُ : ﴿ أُولَئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ . ﴾ البقرة (٥) .

فَجالَتِ الفَرَسُ واضْطَرَبَتْ أَقْوى وأَشَدَّ مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ في الْمَرَّةِ الأولى .

فَسَكَتَ . . فَسَكَنَتِ الفَرَسُ واسْتَقَرَّتْ !

وعاوَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فَكانَ كُلَّما قَرَأَها هاجَتِ الفَرَسُ وجالَتْ ، فَإِذا سَكَتَ عَنِ القِراءَةِ سَكَنَتِ الفَرَسُ واسْتَقَرَّتْ !

فَخافَ عَلى ابْنِهِ « يَحْيى » أَنْ تَطَأَهُ الفَرَسُ في اضْطِرابِها وهَيَجانِها ، فَنَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ لِيوقِظَهُ ، وحانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ إِلى السَّماءِ فَرَأى شَيْئًا عَجَبًا !

رَأى غَمامَةً كَالمِظَلَّةِ لَمْ تَقَعْ عَيْنُهُ عَلى أَبْهى مِنْها ولا أَرْوَعَ ، وقَدْ تَدَلَّى مِنْها أَمْثالُ المَصابيحِ ، فَأَضاءَتْ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، وظَلَّتْ تَصْعَدُ حَتّى غابَتْ عَنْ ناظِرَيْهِ !

ولَبِثَ « أُسَيْدٌ » يَنْتَظِرُ إِسْفارَ الصُّبْحِ بِصَبْرٍ نافِدٍ ؛ كَيْ يَذْهَبَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَيُخْبِرَهُ بِما رَأى ، ويَسْأَلَهُ تَفْسيرًا . . فَلَمّا قَصَّ عَلى الرَّسولِ ﷺ ما شاهَدَهُ – قال

لَهُ : « هَذِهِ الْمَلائِكَةُ ، جاءَتْ تَسْتَمِعُ إِلَيْكَ يا أُسَيْدُ ، ولَوْ أَنَّكَ مَضَيْتَ في قِراءَتِكَ لَرَآها النّاسُ ، ولَمْ تَسْتَتِرْ مِنْهُمْ . »

* * *

وكَما أَحَبَّ « أُسَيْدٌ » القُرْآنَ الكَريمَ هَذا الحُبَّ العَظيمَ ، كَذَلِكَ أَحَبَّ الرَّسولَ الأَمينَ حُبًّا خالَطَ شَغافَ قَلْبِهِ ، ومَلَكَ عَلَيْهِ مَشاعِرَهُ وحِسَّهُ ، فَكانَ لا يُطيقُ عَنْهُ ابْتِعادًا ، ولا يَسْتَطيعُ عَلى فِراقِهِ صَبْرًا ، وكانَ يَجِدُ سَعادَتَهُ أَصْفى ما تَكونُ ، ويُحِسُّ لَذَّتَهُ أَرْقى ما تَكونُ – حينَما يَقْرَأُ القُرْآنَ الكَريمَ ، أَوْ تَكْتَحِلُ عَيْناهُ بِمَرْأى الرَّسولِ الأَمينِ .

وكانَتْ نَفْسُهُ تَتوقُ تَوْقًا شَديدًا إِلى أَنْ يُلامِسَ جَسَدُهُ جَسَدَ الرَّسولِ ﷺ ، ويَتَمَنّى أَنْ يَمَسَّهُ ويُقَبِّلَهُ . وقَدْ شاءَ اللهُ أَنْ تَتَحَقَّقَ لَهُ أُمْنِيَّتُهُ ، وأَنْ يُدْرِكَ طِلْبَتَهُ ؛ فَقَدْ كانَ يُطْرِفُ القَوْمَ بِمُلَحِهِ وفُكاهَتِهِ ذاتَ يَوْمٍ ، فَغَمَزَهُ الرَّسولُ ﷺ في جَنْبِهِ إِعْجابًا بِما يَقولُ ، واسْتِحْسانًا لَهُ ، فَاغْتَنَمَ أُسَيْدٌ الفُرْصَةَ ، الَّتي واتَتْهُ عَلى تَلَهُّفٍ وطولِ انْتِظارٍ ، وقالَ : « أَوْجَعْتَني ، يا رَسولَ اللهِ . »

فقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ : « اِقْتَصَّ مِنّي ، يا أُسَيْدُ . »

قالَ « أُسَيْدٌ » : « إنَّ عَلَيْكَ قَميصًا ، ولَيْسَ عَلَيَّ . »

فَرَفَعَ الرَّسولُ الكَريمُ قَميصَهُ ، وراحَ « أُسَيْدٌ » يَحْتَضِنُهُ ويُقَبِّلُهُ ، ويُمَرِّغُ وَجْهَهُ في جَسَدِ الرَّسولِ الكَريمِ ، ويَتَشَمَّمُهُ ، وهُوَ يَقولُ : « جُعِلْتُ فِداءَكَ ، يا رَسولَ اللهِ . واللهِ إنَّها لَبُغْيَةٌ أَبْتَغيها مُنْذُ عَرَفْتُكَ ، وقَدْ أنالَني اللهُ إيّاها الآنَ . »

وكانَ الرَّسولُ الكَريمُ يُبادِلُهُ حُبًّا بِحُبٍّ ، ومَوَدَّةً بِمَوَدَّةٍ ، ويَعْرِفُ لَهُ قَدْرَهُ ، ويُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ ، ويَحْفَظُ لَهُ سابِقَتَهُ في الإسْلامِ ، ودِفاعَهُ عَنْهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، حَتّى إنَّهُ طُعِنَ سَبْعَ طَعَناتٍ ، فَما تَخَلّى عَنْ مَوْقِفِهِ ، ولا انْصَرَفَ عَنْ مَكانِهِ .

وكانَ الرَّسولُ الكَريمُ يَسْتَجيبُ لِرَجائِهِ ، ويَقْبَلُ شَفاعَتَهُ، ويُلَبّي حاجَتَهُ : جاءَهُ يَوْمًا ، وذَكَرَ لَهُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصارِ ، قَدْ مَسَّهُمُ الضُّرُّ ، و أَرْهَقَهُمُ الفَقْرُ والحاجَةُ ، وأَغْلَبُهُمْ مِنَ النِّساءِ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ:

« لَقَدْ جِئْتَنا ، يا أُسَيْدُ ، وقَدْ نَفِدَ ما بأَيْدينا ، فَإذا سَمِعْتَ بِشَيْءٍ قَدْ جاءَنا فاذْكُرْ لَنا أَهْلَ ذَلِكَ البَيْتِ . »

وجاءَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مالٌ ، فَقَسَّمَهُ ﷺ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، وأَعْطى أَهْلَ ذَلِكَ البَيْتِ ، وأَجْزَلَ لَهُمْ في العَطاءِ .

فَقالَ لَهُ « أُسَيْدٌ » شاكِرًا : « جَزاكَ اللهُ عَنْهُمْ خَيْرًا ، يا رَسولَ اللهِ . »

فقالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « وأَنْتُمْ يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ، جَزاكُمُ اللهُ عَنّي خَيْرَ الجَزاءِ ، فَإنَّكُمْ - ما عَلِمْتُ - أَعِفَّةٌ صُبُرٌ ، وسَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً بَعْدي - فَاصْبِروا حَتّى تَلْقَوْني ! »

* * *

وانْتَقَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى بارِئِهِ ، وتَوَلّى الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ أَبو بَكْرٍ الصِّدّيقُ رضي الله عنه ، ثُمَّ آلَتِ الخِلافَةُ إلى الفاروقِ عُمَرَ ابْنِ الخَطّابِ ، وجاءَهُ مالٌ وثِيابٌ ، فَقَسَّمَهُ بَيْنَ المُسْلِمينَ، وبَعَثَ إلى « أُسَيْدٍ » حُلَّةً مِمّا جاءَهُ ، فَلَمّا ارْتَداها « أُسَيْدٌ » وَجَدَها قَصيرَةً صَغيرَةً ، فَلَمْ يُراجِعْ

« عُمَرَ » في ذَلِكَ .

وبَيْنا هُوَ جالِسٌ في الْمَسْجِدِ إذْ مَرَّ بِهِ شابٌّ قُرَشِيٌّ ، وعَلَيْهِ حُلَّةٌ طَوِيلَةٌ سابِغَةٌ ، يجُرُّها على الأَرْضِ جَرًّا ، فَذَكَرَ « أُسَيْدٌ » لِمَنْ كانَ مَعَهُ قولَ الرَّسولِ ﷺ « . . إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ أَثَرَةً بَعْدي » : يَعْني أَنَّ النّاسَ سَوْفَ يَسْتَأْثِرونَ بِالخَيْرِ دونَكُمْ . ثُمَّ قالَ : « صَدَقَ رَسولُ اللهِ ﷺ . »

أَسْرَعَ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ قَوْلَ « أُسَيْدٍ » إلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَجاءَ « عُمَرُ » إلى الْمَسْجِدِ عَلى عَجَلٍ ، فَوَجَدَ « أُسَيْدًا » يُصَلّي ، فَقالَ لَهُ :

« صَلِّ ، يا أُسَيْدُ . »

ولَمّا قَضى صَلاتَهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ « عُمَرُ » وقالَ لَهُ : « ماذا قُلْتَ ، يا أُسَيْدُ ؟ »

فَأَجابَهُ « أُسَيْدٌ » : « ما سَمِعْتَهُ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ . »

فَقالَ لَهُ « عُمَرُ » : « يَرْحَمُكَ اللهُ ، يا أَخي ! إنَّ ما رَأَيْتَهُ عَلى الفَتى القُرَشِيِّ ، حُلَّةٌ بَعَثْتُ بِها إلى فُلانٍ

الأَنْصارِيِّ ، وهُوَ - كما تَعْلَمُ - مِمَّنْ شَهِدَ بَيْعَةَ العَقَبَةِ ، وشَهِدَ بَدْرًا وأُحُدًا ، فَهُوَ عَقَبِيٌّ بَدْرِيٌّ أُحُدِيٌّ ، فَاشْتَراها مِنْهُ الفَتى القُرَشِيُّ ، فَكانَتْ عَلَيْهِ كَما رَأَيْتَ . . أَ تَظُنُّ أَنَّ ما حَدَّثَ بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ يَكونُ في أَيّامي ؟ »

قالَ « أُسَيْدٌ » في حُبٍّ وإجْلالٍ : « واللهِ - يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ - ما ظَنَنْتُ ذَلِكَ يَكونُ في زَمانِكَ ! »

ولَمْ يَمْتَدَّ العُمْرُ بِـ « أُسَيْدٍ » ، فَقَدْ وافاهُ الأَجَلُ في خِلافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وحَمَلَ « عُمَرُ » نَعْشَهُ في الْمَسْجِدِ ، وصَلّى عَلَيْهِ !

و وَجَدَ أَنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا بَلَغَ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، وهَمَّ وَرَثَتُهُ بِبَيْعِ أَرْضٍ كانَتْ لَهُ ، لِيَتَمَكَّنوا مِنَ الوَفاءِ بِدَيْنِهِ ، فَلَمّا عَلِمَ « عُمَرُ » بِذَلِكَ كَلَّمَ الدّائِنينَ ، وفاوَضَهُمْ حَتّى قَبِلوا أَنْ يَشْتَروا مِنْهُ ثَمَرَ الأَرْضِ أَرْبَعَ سِنينَ ، كُلُّ سَنَةٍ بِأَلْفٍ ، وقالَ : « لا أَتْرُكُ بَني أَخي «« أُسَيْدٍ »» عالَةً عَلى النّاسِ . »

* * *

أمُّ الْمُؤْمِنينَ
جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحارِثِ

لَمْ يَكَدِ الْمُسْلِمونَ يَفْرَغونَ مِنْ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ ، وما كانَ فيها مِنْ حِصارٍ قاسٍ طَويلٍ ، ابْتُلِيَ فيهِ الْمُؤْمِنونَ وزُلْزِلوا زِلْزالاً شَديدًا ؛ ثُمَّ مِنْ بَني قُرَيْظَةَ ومُحاصَرَةِ الْمُسْلِمينَ لَهُمْ فَتْرَةً مُؤْلِمَةً عَنيفَةً ، وما جاءَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْ بَني لِحْيانَ وغَيْرِهِمْ - ما كادوا يَفْرَغونَ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ ، الَّذي تَتابَعَ بَعْضُهُ في إثْرِ بَعْضٍ ، حَتّى أَرادوا أَنْ يَلْتَمِسوا قِسطًا مِنَ الرّاحَةِ ، يَسْتَرِدّونَ فيهِ نَشاطَهُمْ ، ويُصْلِحونَ شُئونَهُمْ ، ويَرُمّونَ أَسْلِحَتَهُمْ ، ولكِنَّ الأَيّامَ لَمْ تُمْهِلْهُمْ غَيْرَ شَهْرٍ وبَعْضِ شَهْرٍ ، وإذا الأَنْباءُ تَأْتيهِمْ بِأَنَّ بَني الْمُصْطَلَقِ مِنْ خُزاعَةَ يَجْمَعونَ جُموعَهُمْ ، ويُعِدّونَ أَمْرَهُمْ لِمُهاجَمَةِ الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، فَرَأى الرَّسولُ القائِدُ

أَنْ يُباغِتَهُمْ في دِيارِهِم ، و أَنْ يُفاجِئَهُمْ في مَنازِلِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمِلوا اسْتِعْدادَهُمْ ، فَيُفْسِدَ مَكْرَهُمْ ، ويُبَدِّدَ شَمْلَهُمْ .

زَحَفَ الجَيْشُ الإسْلامِيُّ إلى بَني الْمُصْطَلَقِ ، بِقِيادَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وكانَتْ مَعَهُ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ، فَلَقِيَهُمْ عِنْدَ ماءٍ لَهُمْ في مَوْضِعٍ يُعْرَفُ باسْمِ « الْمُرَيْسيع » ، فاقْتَتَلوا اقْتِتالاً شَديدًا ، ولكِنَّ اللهَ نَصَرَ عِبادَهُ الْمُؤْمِنينَ ، و وَلّى بَنو الْمُصْطَلَقِ الأَدْبارَ ، وخَلَّفوا وَراءَهُمْ نِساءَهُمْ وأَبْناءَهُمْ وأَمْوالَهُمْ ، فَغَنِمَ الْمُسْلِمونَ ما شاءَ اللهُ لَهُمْ أَنْ يَغْنَموا ، وأَسَروا ما شاءَ اللهُ لَهُمْ أَنْ يَأْسِروا . وكانَ مِنْ بَيْنِ الأَسْرى أَسيرَةٌ حَسْناءُ ، لا تَتَجاوَزُ العِشْرينَ رَبيعًا ، حُلْوَةُ التَّقاطيعِ ، مَليحَةُ القَسِماتِ ، لا يَراها أَحَدٌ إلا أَخَذَتْ بِعَيْنِهِ ، تِلْكَ هِيَ « بَرَّةُ » ابْنَةُ الحارِثِ بْنِ ضِرارٍ ، شَيْخِ بَني الْمُصْطَلَقِ ، وزَعيمِهِمْ ، وقائِدِهِمْ في القِتالِ مَعَ الْمُسْلِمينَ ، الَّذي فَرَّ

مَعَ الفارّينَ ، وتَرَكَ وَراءَهُ مالَهُ وأَهْلَهُ كما تَرَكَ الآخَرونَ !

قَفَلَ الرَّسولُ ﷺ عائدًا إلى الْمَدينَةِ ، فافْتَقَدَ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَآها داخِلَةً عَلى بَعيرٍ لِصَفْوانَ السُّلَمِيِّ ؛ فَاطْمَأَنَّ عَلَيْها ، وراحَ يُوَزِّعُ الغَنائِمَ والأَسْرى عَلى مَنِ اشْتَرَكوا في القِتالِ ، وعانَوْا مَرارَتَهُ وقَساوَتَهُ ، وكانَتْ « بَرَّةُ » في سَهْمِ لِثابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَوْ لابْنِ عَمٍّ لَهُ .

انْصَرَفَ الرَّسولُ القائِدُ إلى بَيْتِهِ ، وقَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، و خَلا بالُهُ ، إلا مِنْ هُموم الدَّعْوَةِ وشُئونِها ، وأَوى إلى حُجْرَةِ عائِشَةَ يَلْتَمِسُ قِسْطًا مِنَ الرّاحَةِ بَعْدَ هَذا العَناءِ الطَّويلِ .

وبَيْنا هُوَ جالِسٌ في حُجْرَةِ عائِشَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) سُمِعَتِ امْرَأَةٌ تَسْتَأْذِنُ بِصَوْتٍ شَجِيٍّ مُؤَثِّرٍ ، فَقامَتْ عائِشَةُ إلى البابِ ، تَسْتَطْلِعُ الخَبَرَ ، فَرَأَتْ شابَّةً في العِشْرينَ مِنْ عُمْرِها ، حُلْوَةً حَلاوَةً آسِرَةً ، لا يَراها أَحَدٌ إلا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ ، كما قالَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) ،

وكانَتْ تَبْدو قَلِقَةً خائِفَةً ، كَأَنَّما قَدْ نَزَلَ بِها مَكْروهٌ ، أَوْ حَلَّتْ بِها قارِعَةٌ ، وقَدْ زادَها خَوْفُها وانْفِعالُها جَمالاً وسِحْرًا !

كَرِهَتْها عائِشَةُ - كَما تَقولُ - مِنْ أَوَّلِ نَظْرَةٍ إِلَيْها ، وهَمَّتْ أَنْ تَحولَ بَيْنَها وبَيْنَ لِقاءِ الرَّسولِ ﷺ ؛ إِذْ كانَ يَسْتَريحُ ، ولَكِنَّ إِلْحاحَ هَذِهِ الشّابَّةِ الغَريبَةِ ، وصَوْتَ اسْتِغاثَتِها بَلَغَ مَسامِعَ الرَّسولِ الكَريمِ فَأَذِنَ لَها . فَلَمّا دَخَلَتْ قالَتْ في نَبْرَةٍ آسِيَةٍ حَزينَةٍ :

« يا رَسولَ اللهِ ، أَنا بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِهِ ، الحارِثِ بْنِ أَبي ضِرارٍ ، وقَدْ وَقَعَ بي ما لَيْسَ خافِيًا عَلَيْكَ ، وأَصْبَحْتُ عِنْدَ ثابِتِ بْنِ قَيْسٍ (أَو ابْنِ عَمِّهِ) ، وقَدْ كاتَبْتُهُ عَلى مالٍ (أَيِ اشْتَرَتْ نَفْسَها مِنْهُ) ، ولَيْسَ مَعي ما أُعْطيهِ ، فَأَعِنّي في كِتابَتي . »

تَأَثَّرَ الرَّسولُ الكَريمُ تَأَثُّرًا بالِغًا لِهَذِهِ الكَريمَةِ الْمُهانَةِ ، ورَقَّ قَلْبُهُ رِقَّةً شَديدَةً لِهَذِهِ العَرَبِيَّةِ الحُرَّةِ ، التّي أَذَلَّتْها

الأَيّامُ ، وقَسا عَلَيْها الدَّهْرُ ، وفاضَتْ نَفْسُهُ رَحْمَةً لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتي لا تَجِدُ غَيْرَهُ ، تَلوذُ بِهِ لِيُنْقِذَها مِنَ الْمَذَلَّةِ والهَوانِ ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذي حارَبَ قَوْمَها وهَزَمَهُمْ ! ولَمْ يُرِدْ أَنْ يَقْطَعَ خَيْطَ الرَّجاءِ الَّذي تَشَبَّثَتْ بِهِ في مِحْنَتِها ؛ لِيَعْصِمَها مِنْ الانْهِيار ، ويُنْقِذَها مِنَ الضَّياعِ !

وبَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ خالَتْها « بَرَّةُ » دَهْرًا طَويلاً ، قالَ لَها الرَّسولُ الكَريمُ في نَبْرَةٍ حانِيَةٍ : « أَلَكِ في خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ »

قالَتْ : « و ما هُوَ ؟ »

قالَ الرَّسولُ الكَريمُ : « أُؤَدّي عَنْكِ كِتابَتَكِ ، وأَتَزَوَّجُكِ ، ويَكونُ ذَلِكَ مَهْرَكِ . »

تَأَلَّقَ وَجْهُها تَأَلُّقًا باهِرًا ، وأَشْرَقَتْ أَساريرُهُ ، ولَمَعَتْ عَيْناها بِبَريقٍ خاطِفٍ ، ورَقَصَ طائِرُ الفَرَحِ في صَدْرِها ، وقالَتْ في نَشْوَةٍ غامِرَةٍ : «قَبِلْتُ ، يا رَسولَ اللهِ !»

وذاعَ الخَبَرُ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ ، وإذا هُمْ يُطْلِقونَ الأَسْرى

مِنْ قَوْمِها ، وهُمْ يَقولونَ : « أَصْهارُ رَسولِ اللهِ ! »

فَأُعْتِقَ بِسَبَبِها أَهْلُ مِائَةِ بَيْتٍ ، ورُوِيَ أَنَّهُمْ كانوا سَبْعَمائَةٍ . فَلَمْ تُرَ امْرَأَةٌ أَعْظَمُ بَرَكَةً عَلى قَوْمِها مِنْها !

دَخَلَتْ « بَرَّةُ » بَيْتَ الرَّسولِ ﷺ مُتَهَلِّلَةً مُسْتَبْشِرَةً ، وسَمّاها الرَّسولُ الكَريمُ « جُوَيْرِيَةَ » ، وظَلَّتْ حَياتَها كُلَّها تَذْكُرُ هَذِهِ اللَّحْظَةَ الْمُبارَكَةَ ، الَّتي وَقَفَتْ فيها بِبابِ الرَّسولِ الكَريمِ تَسْتَغيثُهُ وتَسْتَعينُهُ ، فَرَفَعَ مَكانَتَها ، وأَعْلى قَدْرَها ، وجَعَلَها أُمًّا لِلْمُؤْمِنينَ ! بَعْدَ أَنْ كانَتْ زَوْجَةً لابْنِ عَمِّها « مُسافِعِ الْمُصْطَلِقِيِّ » ، الَّذي خَلاها ولاذَ بِالفِرارِ طَمَعًا في النَّجاةِ !

وكانَتْ « جُوَيْرِيَةُ » (رَضِيَ اللهُ عَنْها) مِنْ أَعْبَدِ أُمَّهاتِ الْمُؤْمِنينَ ، وأَكْثَرِهِنَّ تَسْبيحًا للهِ وحَمْدًا . قالَتْ : « أَتى عَلَيَّ رَسولُ اللهِ وأَنا أُسَبِّحُ غُدْوَةً ، ثُمَّ انْطَلَقَ لِحاجَتِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ قَريبًا مِنْ نِصْفِ النَّهارِ وأَنا أُسَبِّحُ ، فَقالَ : « ما زِلْتِ قاعِدَةً ؟ » قُلْتُ : « نَعَمْ . » قال : « أَلا أُعَلِّمُكِ كَلِماتٍ لَوْ

عُدِلْنَ بِها » (يَعْني جَميع ما سَبَّحَتْ بِهِ) . قُلْتُ : « عَلِّمْني ، يا رَسولَ اللهِ . » قالَ : « تَقولينَ : سُبْحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ (ثَلاثَ مَرّاتٍ) ، سُبْحانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ (ثَلاثَ مَرّاتٍ) ، سُبْحانَ اللهِ مِدادَ كَلِماتِهِ (ثَلاثَ مَرّاتٍ) . »

وَيُرْوى أَنَّ أَباها « الحارِثَ بْنَ أَبي ضِرارٍ » جاءَ إِلى الْمَدينَةِ قَبْلَ أَنْ يُعْلِنَ الرَّسولُ ﷺ خَبَرَ زَواجِهِ مِنْها ، وَمَعَهُ فِداءُ ابْنَتِهِ مِنْ أَسْرِها ، فَلَمّا كانَ قَريبًا مِنَ الْمَدينَةِ بِمَوْضِعٍ يُسَمّى « العَقيقَ » ، نَظَرَ إِلى الإِبِلِ الَّتي جاءَ بِها لِلْفِداءِ ، فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يُخْفِيَ بَعيرَيْنِ مِنْها ، أُعْجِبَ بِهِما ، فَغَيَّبَهُما في شِعْبٍ مِنْ شِعابِ العَقيقِ ، ثُمَّ أَتى النَّبِيَّ ﷺ وَقالَ : « يا مُحَمَّدُ ، أَصَبْتُمُ ابْنَتي ، وَهَذا فِداؤُها . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « فَأَيْنَ البَعيرانِ اللَّذانِ غَيَّبْتَهُما في شِعْبِ كَذا بِوادي العَقيقِ ؟ »

قالَ الحارِثُ مُسْرِعًا : « أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ، فَوَاللهِ ما اطَّلَعَ عَلى ذَلِكَ إِلا اللهُ ! »

فَأَسْلَمَ « الحارِثُ » وَأَسْلَمَ مَعَهُ جَماعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَابْنانِ لَهُ ، ثُمَّ أَرْسَلَ في طَلَبِ البَعيرَيْنِ ، فَجاءَ بِهِما ، وَدَفَعَ الإِبِلَ إِلى الرَّسولِ ﷺ ، وَدُفِعَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ ، فَأَسْلَمَتْ ، فَخَطَبَها مِنْهُ رَسولُ اللهِ ﷺ فَزَوَّجَهُ إِيّاها عَلى صَداقٍ قَدْرُهُ أَرْبَعُمائَةِ دِرْهَمٍ .

وَظَلَّتْ أُمُّ الْمُؤْمِنينَ « جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحارِثِ » عابِدَةً قانِتَةً حَتّى وافَتْها الْمَنِيَّةُ ، وَرَجَعَتْ إِلى رَبِّها راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، في العامِ السّادِسِ وَالخَمْسينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وَقَدْ أَشْرَفَتْ عَلى عامِها الخامِسِ وَالسِّتّينَ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) .

* * *

حَبْرُ الأُمَّةِ

زَيْدُ بْنُ ثابتٍ

وحَبْرُ الأُمَّةِ هُوَ عالِمُها الْمُتَمَكِّنُ مِنْ عِلْمِهِ ، وفَقيهُها الْمُتَبَصِّرُ في فِقْهِهِ ، يُبَيِّنُ لَها أَحْكامَ الشَّريعَةِ وتَعاليمَها ، ويُوَضِّحُ لِلنّاسِ مَقاصِدَها وغاياتِها ، يُفْتيهِمْ فيما يَعْتَرِضُهُمْ مِنْ مُشْكِلاتٍ ، وما يَجِدُّ مِنْ أَحْداثٍ .

ويَبْدو أَنَّ والِدَ « زَيْد » كانَ فارِسًا شُجاعًا ، يَعْرِفُ لَهُ قَوْمُهُ الأَنْصارُ مَكانَتَهُ ومَنْزِلَتَهُ ، فَأَرادَتْ أُمُّ زَيْدٍ « النَّوارُ بِنْتُ مالِكٍ » لابْنِها أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَبيهِ ، ويَنْهَجَ طَريقَهُ . فَفي السَّنَةِ الثّانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ ، سَعى « زَيْدٌ » وهُوَ حَدَثٌ صَغيرٌ ، لَمْ يُتِمَّ عامَهُ الثّالِثَ عَشَرَ - سَعى إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ومَعَهُ سَيْفٌ يُضارِعُهُ طولاً ، يَرْجو الرَّسولَ الكَريمَ أَنْ يَقْبَلَهُ في صُفوفِ الخارِجينَ لِلِقاءِ قُرَيْشٍ ، ولَكِنَّ الرَّسولَ

الكَريمَ رَدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، فَعادَ حَزينًا مَهْمومًا كَما عادَتْ أُمُّهُ وَراءَهُ أَشَدَّ حُزْنًا وهَمًّا ؛ فَقَدْ كانَتْ تَرْجو لابْنِها أَنْ يَتَبَوَّأَ الْمَكانَةَ الَّتي كانَ أَبوهُ جَديرًا بِها لَوْ كانَ حَيًّا !

ولَكِنَّ الحُزْنَ والأَسى لَمْ يَمْلأْ قَلْبَ « زَيْد » بِالْيَأْسِ والقُنوطِ مِنْ صُحْبَةِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، والتَّقَرُّبِ مِنْهُ . وتَفَتَّقَ ذِهْنُهُ الواعي اليَقِظُ ، وعَقْلُهُ الذَّكِيُّ البارِعُ ، عَنْ مَجالٍ آخَرَ لا حِسابَ فيهِ لِصِغَرِ السِّنِّ ولا لِكِبَرِهِ ، ذَلِكَ هُوَ مَجالُ العِلْمِ والفِقْهِ .

وإذا كانَ مَجالُ الجِهادِ وشَرَفُهُ قَدْ فاتَهُ - فَإِنَّ مَيْدانَ العِلْمِ يَتَّسِعُ لَهُ ، ويُرَحِّبُ بِهِ .

وذَكَرَ الغُلامُ فِكْرَتَهُ لأُمِّهِ « النَّوار » فَرَحَّبَتْ بِها تَرْحيبًا كَبيرًا ، ولامَتْ نَفْسَها أَنْ غابَتْ عَنْ ذِهْنِها هَذِهِ الفِكْرَةُ الصّالِحَةُ ، وهِيَ تَلْمَحُ في ابْنِها « زَيْد » ذَكاءً مُتَوَقِّدًا ، وعَقْلاً واعِيًا ، وذِهْنًا مُتَفَتِّحًا ، وذاكِرَةً حافِظَةً . عَجِبَتِ « النَّوارُ » مِنْ أَمْرِ نَفْسِها ، وأَسْرَعَتْ إلى رِجالٍ مِنْ قَوْمِها تَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ ابْنِها ، وتَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَذْكُروا ذَلِكَ

لِرَسولِ اللهِ ﷺ .

مَضى القَوْمُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وقالوا لَهُ :

« يا رسولَ اللهِ ، هَذا ابْنُنا «« زَيْدٌ »» قَدْ حَفِظَ سَبْعَ عَشْرَةَ سورَةً مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ ، يَتْلوها تِلاوَةً صَحيحَةً مُتْقَنَةً ، كَما أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ . كَما أَنَّهُ حاذِقٌ فَطِنٌ ، يُجيدُ القِراءَةَ والكِتابَةَ . وهُوَ يَرْغَبُ في أَنْ يَتَقرَّبَ بِذَلِكَ إلَيْكَ ، ويَلْزَمَ مَجْلِسَكَ ، فَاسْمَعْ مِنْهُ إنْ أَحْبَبْتَ . »

سَمِعَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ « زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ » بَعْضًا مِمّا يَحْفَظُ ، فَوَجَدَهُ بارِعًا في تِلاوَتِهِ ، فَصيحًا في نُطْقِهِ ، يُعْطي الحُروفَ حَقَّها ، يُخْرِجُها مِنْ مَخارِجِها ، ويَقِفُ وَقَفاتٍ تُنْبِئُ عَنْ فَهْمٍ دَقيقٍ لِما يَتْلو ، وصَوْتُ تِلاوَتِهِ يَدُلُّ عَلى تَأَثُّرٍ بِما يَتْلو ، وتَشِعُّ مِنْهُ روحٌ مُؤْمِنَةٌ طاهِرَةٌ تَرِفُّ حَوْلَهُ ، فَيَخْشَعُ سامِعُهُ ، ويَتَذَوَّقُ حَلاوَةَ القُرْآنِ مَعَهُ .

سُرَّ بِهِ الرَّسولُ ﷺ سُرورًا بالِغًا ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيْهِ وقالَ لَهُ : « يا زَيْدُ ، تَعَلَّمْ لِسانَ اليَهودِ ؛ فَإنّي لا آمَنُ

مَكْرَهُمْ . »

ولَمّا أَخْبَرَ « زَيْدٌ » أُمَّهُ « النَّوارَ » بِما كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الرَّسولِ الكَريمِ ، وبِما أَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَعَلُّمِ لِسانِ اليَهودِ ؛ كادَ قَلْبُها يَثِبُ مِنْ صَدْرِها مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ، ودَعَتِ اللهَ الكَريمَ أَنْ يُهَيِّئَ لابْنِها مِنْ أَمْرِهِ رَشَدًا ، وأَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِنورِ العِلْمِ كَما شَرَحَهُ لِلإسْلامِ .

وأَكَبَّ « زَيْدٌ » عَلى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ العِبْرِيَّةِ ، لُغَةِ اليَهودِ ، حَتّى أَتْقَنَها إتْقانًا جَيِّدًا في زَمَنٍ يَسيرٍ ، فَكانَ يَكْتُبُ بِها لِلرَّسولِ إذا أَرادَ أَنْ يَكْتُبَ لِلْيَهودِ ، ويَقْرَؤُها لَهُ إذا هُمْ كَتَبوا لَهُ ، وبِذَلِكَ أَمِنَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ ، وكانَ قَوْلُهُ الحَكيمُ الَّذي يَحُضُّ عَلى تَعَلُّمِ لُغاتِ الآخَرينَ وإجادَتِها : « مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةَ قَوْمٍ أَمِنَ مَكْرَهُمْ » .

ولَمْ يَكْتَفِ الرَّسولُ ﷺ مِنْ « زَيْد » بِذَلِكَ ، فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ السِّرْيانِيَّةَ ، وهِيَ لُغَةٌ كانَتْ مُنْتَشِرَةً آنَذاكَ بَيْنَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، فَانْصَرَفَتْ إلَيْها هِمَّةُ « زَيْدٍ » حَتّى

أَتْقَنَها ، وأَجادَ القِراءَةَ بها والكِتابَةَ ، فكانَ - بِحَقٍّ واقْتِدارٍ - تُرْجُمانَ الرَّسولِ ﷺ كما لَقَّبوهُ .

وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلى « زَيْدٍ » عَظيمًا ؛ فَقَدْ تَيَقَّنَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ رَصانَتِهِ ورَزانَتِهِ ، واطْمَأَنَّ إلى دِقَّتِهِ وأَمانَتِهِ ، فَاتَّخَذَهُ كاتِبًا لِلْوَحْيِ . . فَكانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ - أَرْسَلَ في طَلَبِ « زَيْدٍ » ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ ما نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ في السّورَةِ الَّتي يُحَدِّدُها لَهُ ، وفي الْمَوْضِعِ الَّذي يُعيِّنُهُ مِنَ السّورَةِ لَهُ .

وكانَتْ هَذِهِ نِعْمَةً سابِغَةً على « زَيْدٍ » ؛ إِذْ يَتَلَقّى القُرْآنَ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ ، فَتَنْمو نَفْسُهُ مَعَهُ ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وتُشْرِقُ روحُهُ بِكَلِماتِهِ ، ويَسْتَضيءُ عَقْلُهُ بِآياتِهِ ، خاصَّةً وهُوَ يَتَلَقّاهُ رَطْبًا مِنْ فَمِ الرَّسولِ الأَمينِ ، مَوْصولاً بِأَسْبابِ نُزولِهِ !

وإذا الفَتى « زَيْدُ بْنُ ثابِتٍ » يُصْبِحُ الْمَرْجِعَ الوَحيدَ لأُمَّةِ الإِسْلامِ في القُرْآنِ الكَريمِ ، بَعْدَ انْتِقالِ الرَّسولِ الحَبيبِ إِلى الرَّفيقِ الأَعْلى .

ويُضيءُ القُرْآنُ الكَريمُ لِصاحِبِهِ بَصيرَتَهُ ، ويَحْفَظُ عَلَيْهِ عَقْلَهُ و وَعْيَهُ ؛ فلا يَضِلُّ الطَّريقَ الْمُسْتَقيمَ في الأَحْداثِ الجِسامِ ولا يَزِلُّ ، ولا يَحارُ في المواقِفِ الصَّعْبَةِ الَّتي تُحَيِّرُ أُولي الأَلْبابِ . فَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُسْلِمونَ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسولِ ﷺ وقَبْلَ أَنْ يَدْفِنوهُ - اخْتَلَفوا فيمَنْ يَكونُ خَليفَتَهُ ، فَقالَ الْمُهاجِرونَ : « مِنّا الخَليفَةُ . » وقالَ بَعْضُ الأَنْصارِ : « بَلْ مِنّا يَكونُ الخَليفَةُ ؛ فَنَحْنُ الَّذينَ نَصَرْنا الرَّسولَ ﷺ ، و شَدَدْنا أَزْرَهُ ، وآوَيْناهُ . »

وقالَ بَعْضٌ آخَرُ : « مِنّا خَليفَةٌ ، ومِنْكُمْ أَيُّها الْمُهاجِرونَ خَليفَةٌ . »

وكادَتْ تَحْدُثُ فِتْنَةٌ ، تَعْصِفُ بِالْمُسْلِمينَ عَصْفًا شَديدًا . وكانَ لا بُدَّ مِنْ وَقْفَةٍ حاسِمَةٍ تُشْرِقُ بِهُدى القُرْآنِ ، وأَنْ تَكونَ هَذِهِ الوَقْفَةُ أَنْصارِيَّةً خالِصَةً ، حَتّى تَئِدَ الفِتْنَةَ في مَهْدِها . وفي هَذا الْمَوْقِفِ الْمُضْطَرِبِ العَصيبِ تَقَدَّمَ « زَيْدُ بْنُ ثابِتٍ » ، وكُلُّ الْمُسْلِمينَ - مِنْ مُهاجِرينَ وأَنْصارٍ - يُجِلّونَهُ ويَعْرِفونَ لَهُ فَضْلَهُ وقُرْبَهُ مِنَ

الرَّسولِ الحَبيبِ - تَقدَّمَ « زَيْدٌ » وقالَ : « يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ، لَقَدْ كانَ الرَّسولُ ﷺ مُهاجِرًا - فَيَجِبُ أَنْ يَكونَ خَليفَتُهُ مُهاجِرًا مِثْلَهُ ، ولَقَدْ كُنّا نَحْنُ أَنْصارَ رَسولِ اللهِ وأَعْوانَهُ - فَيَجِبُ أَنْ نَكونَ أَنْصارَ خَليفَتِهِ ومُعاوِنيهِ . »

ثُمَّ أَشارَ « زَيْدٌ » إلى « أَبي بَكْرٍ » وقالَ : « هَذا خَليفَتُكُمْ فَبايِعوهُ . » ثُمَّ قالَ لَهُ : « اُبْسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ . »

* * *

ويَرْتَدُّ عَنِ الإسْلامِ كَثيرٌ مِنْ قَبائِلِ العَرَبِ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسولِ ﷺ ؛ ويَعْزِمُ أَبو بَكْرٍ عَزْمَةً صادِقَةً عَلى قِتالِهِمْ . وتَدورُ رَحى الحَرْبِ ، ويَخْرُجُ الصَّحابَةُ - رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - لِلْجِهادِ ، ويُسْتَشْهَدُ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ حُفّاظِ القُرْآنِ الكَريمِ وقُرّائِهِ !

ويَخْشى عُمَرُ رضي الله عنه أَنْ تَضيعَ بَعْضُ آياتِ القُرْآنِ بِمَوْتِ حُفّاظِهِ ، فَيَقْتَرِحُ عَلى الخَليفَةِ جَمْعَ القُرْآنِ الكَريمِ في مُصْحَفٍ واحِدٍ . ويَتَرَدَّدُ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه بادِئَ الأَمْرِ ،

فَكَيْفَ يُقْدِمُ عَلى عَمَلٍ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسولُ اللهِ ﷺ . وما زالَ بِهِ عُمَرُ رضي الله عنه حَتّى شَرَحَ اللهُ لِهَذا العَمَلِ الجَليلِ صَدْرَهُ ، ولَمْ يَجِدْ غَيْرَ « زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ » يَجْعَلُهُ عَلى رَأْسِ القائِمينَ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ ، والنّاهِضينَ بِهَذا العَمَلِ الجَليلِ .

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ « زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ » اسْتَثْقَلَ هَذا العَمَلَ ، وكانَ يَقولُ : « لَوْ أَنَّ الخَليفَةَ أَمَرَني أَنْ أَنْقُلَ جَبَلَ أُحُدٍ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ - لَكانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ هَذا العَمَلِ . » وعَلى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ - شَمَّرَ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ ، وأَحْضَرَ ما كُتِبَ مِنْ آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ ، وكَتَبَ ما لَمْ يَكُنْ مَكْتوبًا ، وطابَقَهُ عَلى ما في صُدورِ الحُفّاظِ ، ورَتَّبَهُ تَرْتيبًا دَقيقًا كَما عَلَّمَهُ جِبْريلُ عليه السلام لِلرَّسولِ الأَمينِ ، فَتَكَوَّنَ مِنْ ذَلِكَ مُصْحَفٌ واحِدٌ ، جَمَعَ بَيْنَ دَفَّتَيْهِ القُرْآنَ الكَريمَ ، وكانَ هُوَ الْمُصْحَفَ الَّذي جَمَعَ عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ رضي الله عنه الْمُسْلِمينَ عَلى القِراءَةِ بِهِ . وكانَ « زَيْدُ بْنُ ثابِتٍ » في طَليعَةِ النّاسِخينَ لِهَذا الْمُصْحَفِ في عَهْدِهِ .

وهَذِهِ مَكْرُمَةٌ ما بَعْدَها مَكْرُمَةٌ ، ومَنْزِلَةٌ ما بَعْدَها

مَنْزِلَةٌ، بَلَغَها « زَيْدٌ » بِفَضْلِ القُرْآنِ الكَريمِ ، وطولِ مُلازَمَتِهِ لِلنَّبيِّ الأَمينِ . وبِهَذا – أَيْضًا – عَرَفَ لَهُ الْمُسْلِمونَ مَنْزِلَتَهُ ومَكانَتَهُ ، فَكانَ الخُلَفاءُ يَسْتَشيرونَهُ ، والعامَّةُ يَسْتَفْتونَهُ ، وقَدَّرَهُ طُلابُ العِلْمِ حَقَّ قَدْرِهِ ، وأَحَلّوهُ الْمَقامَ الرَّفيعَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ ، فَكانَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبّاسٍ » – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ويُمْسِكُ لَهُ بِرِكابِهِ ، ويَأْخُذُ بِزِمامِ دابَّتِهِ ، ويَقولُ : « هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمائِنا . »

ولَمّا أَرادَ اللهُ – عَزَّ وجَلَّ – أَنْ يَسْتَرِدَّ وَديعَتَهُ ، وقَبَضَهُ إِلَيْهِ ؛ بَكاهُ وبَكَوُا العِلْمَ الَّذي ثَوى مَعَهُ – فَقَدْ كانَ الْمَرجِعَ الأَوَّلَ لِطالِبي القُرْآنِ الكَريمِ ، كَما قالَ عُمَرُ رضي الله عنه : « مَنْ أَرادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ القُرْآنِ فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ . »

وقالَ أَبو هُرَيْرَةَ يَوْمَ فَقْدِهِ : « اليَوْمَ ماتَ حَبْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وعَسى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ في ابْنِ عَبّاسٍ خَلَفًا لَهُ ! »

* * *

أَمينُ الأُمَّةِ
أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ

وَصَفَهُ « عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ » فَقالَ : « ثَلاثَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، أَصْبَحُ النّاسِ وُجوهًا ، وأَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وأَشَدُّهُمْ حَياءً ، إِنْ حَدَّثوكَ صَدَقوكَ ، وإِنْ حَدَّثْتَهُمْ لَمْ يُكَذِّبوكَ : أَبو بَكْرٍ الصِّديقُ ، وعُثْمانُ بْنُ عَفّانَ ، وأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ . »

كانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، حَسَنَ الرُّواءِ والْمَنْظَرِ ، مُتَواضِعًا شَديدَ التَّواضُعِ ، طاهِرَ القَلْبِ ، يَقِظَ الضَّميرِ . يَضيقُ صَدْرُهُ بِعِبادَةِ قَوْمِهِ ، ويَنْفِرُ مِنَ الأَصْنامِ نُفورًا شَديدًا . فَما إِنْ عَرَفَ مِنْ صاحِبِهِ « أَبو بَكْرٍ » خَبَرَ الإِسْلامِ ، وما يَحُضُّ عَلَيْهِ مِنْ مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، وما يَدْعو إِلَيْهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، ونَبْذِهِ عِبادَةَ

الأَصْنامِ والاتِّجاهَ إلى غَيْرِ خالِقِ الكَوْنِ ، ومُدَبِّرِ أَمْرِهِ - ما إنْ عَرَفَ ذَلِكَ حَتّى أَسْرَعَ مَعَ الصِّدِّيقِ مُلَبِّيًا الدَّعْوَةَ ، مُسْتَجيبًا لِلرَّسولِ ﷺ ، فَأَعْلَنَ إسْلامَهُ ، وكانَ مِنَ السّابِقينَ الأَوَّلينَ .

وقَدْ عانى « عامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الجَرّاحِ » وهَذا هُوَ اسْمُ « أَبي عُبَيْدَةَ » - عانى مِنْ صُنوفِ الإيذاءِ ، وضُروبِ التَّنْكيلِ ، أَكْثَرَ مِمّا عانى غَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمينَ في مَكَّةَ ؛ فَقَدْ كانَ أَبوهُ هُوَ الَّذي يَقومُ بِتَعْذيبِهِ ، ويَتَوَلّى إيذاءَهُ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ سَيِّدًا مِنْ ساداتِ قُرَيْشٍ ، وقَدْ عَيَّروهُ بِأَنَّ ابْنَهُ اعْتَنَقَ الإسْلامَ عَلى غَيْرِ رَغْبَةٍ مِنْهُ ، ولَمْ يُقِمْ لأُبُوَّتِهِ وَزْنًا ، ولَمْ يَعْمَلْ لَها حِسابًا ، فَأَثاروا حَمِيَّتَهُ ، وجَعَلوهُ لا يُطيقُ ابْنَهُ ، ويُفَكِّرُ تَفْكيرًا عَميقًا جادًّا في قَتْلِهِ والتَّخَلُّصِ مِنْهُ . ولَكِنَّ اللهَ يَعْصِمُ أَتْباعَهُ ، و يَحْفَظُهُمْ ويَرْعاهُمْ ؛ فَنَجّى « أَبا عُبَيْدَةَ » مِنْ كَيْدِ أَبيهِ ومَكْرِهِ ، فهاجَرَ إلى الحَبَشَةِ فيمَنْ هاجَرَ مِنَ الْمُسْلِمينَ إلَيْها ، ثُمَّ

تَحَوَّلَ إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حينَما عَلِمَ بِهِجْرَةِ الرَّسولِ ﷺ إلَيْها .

وشَهِدَ « أَبو عُبَيْدَةَ » مَعَ الرَّسولِ القائِدِ الغَزَواتِ كُلَّها ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ ، ولَمْ يَدَّخِرْ في بَلائِهِ وُسْعًا ؛ فَكانَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الفارِسَ الَّذي يَتَحاماهُ فُرْسانُ قُرَيْشٍ ، ويَتَنَحَّوْنَ عَنْ طَريقِهِ . وكانَ مِنَ الَّذينَ ثَبَتوا حَوْلَ الرَّسولِ القائِدِ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، ولَمّا رَأى حَلْقَتَيْنِ مِنْ حَلَقاتِ دِرْعِهِ قَدْ غارَتا في وَجْنَتَيْهِ ، وأَرادَ أَبو بَكْرٍ أَنْ يَنْتَزِعَهُما - قالَ لَهُ أَبو عُبَيْدَةَ : « بِاللهِ عَلَيْكَ ، دَعْهُما لي . »

وخَشِيَ « أَبو عُبَيْدَةَ » أَنْ يَقْتَلِعَ الحَلْقَتَيْنِ بِيَدِهِ ، فَيُؤْذِيَ ذَلِكَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، فَعَضَّ عَلَيْهِما بِأَسْنانِهِ حَتّى اقْتَلَعَهُما ، ولَكِنَّ فَمَهُ قَدِ امْتَلأَ دَمًا ، ذَلِكَ أَنْ ثَنِيَّتَيْهِ قَدْ سَقَطَتا ، فَعاشَ أَهْتَمَ ، وكانَ شَديدَ الفَخْرِ بِهَذا الهَتْمِ الَّذي أَصابَهُ ، وكانَ أَبو بَكْرٍ يَقولُ : « ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ هَتْمًا مِنْ أَبي عُبَيْدَةَ ! »

وحينَ عَلِمَ الرَّسولُ ﷺ أَنَّ حَيّا مِنْ قَبيلَةِ جُهَيْنَةَ عَلى ساحِلِ البَحْرِ الأَحْمَرِ ، يَقْطَعُ الطَّريقَ عَلى الْمُسْلِمينَ – أَرْسَلَ إِلَيْهِ « أَبا عُبَيْدَةَ » عَلى رَأْسِ ثَلاثِمائَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ ، فيهِمْ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ، وزَوَّدَهُمْ جِرابًا مِنْ تَمْرٍ ، لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ ﷺ غَيْرَهُ ، فَكانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » يُعْطي الرَّجُلَ مِنْهُمْ تَمْرَةً واحِدَةً في اليَوْمِ ، يَمْتَصُّها كما يَمْتَصُّ الطِّفْلُ ثَدْيَ أُمِّهِ ، ثُمَّ يَحْتَفِظُ بِها لِيَمْتَصَّها مَرَّةً أُخْرى ، ويَشْرَبُ عَلَيْها الماءَ . وطالَ بِهِمُ الْمُقامُ حَتّى نَفِدَ ما في الجِرابِ مِنَ التَّمْرِ ، فَأَكَلوا وَرَقَ الشَّجَرِ . ثُمَّ ساقَ اللهُ إِلَيْهِمْ حوتًا كَبيرًا فَأَخَذوهُ ، وأَكَلوا مِنْهُ حَتّى شَبِعوا ، وحَمَلوا بَعْضًا مِنْهُ إِلى الْمَدينَةِ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ .

* * *

وكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَرْضى عَنْ خُلُقِ « أَبي عُبَيْدَةَ » ويُحِبُّهُ ، ويَرى فيهِ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِ الصّادِقِ ، حَتّى قالَ في حَقِّهِ : « ما مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحابي لَوْ شِئْتُ لأَخَذْتُ عَلَيْهِ

في خُلُقِهِ ، لَيْسَ أَبا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرّاحِ . »

ورُوِيَ أَنَّهُ ﷺ أُتِيَ بِطَعامٍ ومَعَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ ، فَقالَ : « يُسْتَحَبُّ أَنْ يَبْدَأَ رَجُلٌ صالِحٌ . اِبْدَأْ ، يا أَبا عُبَيْدَةَ . »

وسُئِلَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) : « مَنْ كانَ أَحَبَّ إِلى رَسولِ اللهِ ؟ »

فَقالَتْ : « أَبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ . »

وحينَ جاءَ وَفْدٌ مِنْ نَصارى نَجْرانَ – الَّتي تَقَعُ بَيْنَ اليَمَنِ والحِجازِ – إِلى الْمَدينَةِ ، يُناقِشونَ الرَّسولَ ﷺ في أُمورِ الدّينِ ، فَلَمّا ظَهَرَ لَهُمُ الحَقُّ أَعْلَنوا إِسْلامَهُمْ ، ورَغِبوا إِلى الرَّسولِ الكَريمِ في أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُمْ رَجُلاً مِنْ أَصْحابِهِ ، يُقْرِئُهُمُ القُرْآنَ ، ويُعَلِّمُهُمُ الإِسْلامَ ، ويَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ والعَدْلِ ، فَقالَ لَهُمُ الرَّسولُ : « اِئْتوني العَشِيَّةَ ، لأُرْسِلَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمينًا حَقَّ أَمينٍ . »

وتَطَلَّعَ الصَّحابَةُ كُلُّهُمْ إِلى الفَوْزِ بِهَذا اللَّقَبِ الرَّفيعِ ،

وأَنْ يَكونَ كُلٌّ واحِدٍ مِنْهُمُ الأَمينَ حَقَّ أَمينٍ . فَلَمّا انْفلَتَ الرَّسولُ الكَريمُ مِنْ صَلاةِ العَصْرِ ، أَخَذَ الصَّحابَةُ مَجْلِسَهُمْ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، وجاءَ وَفْدُ نَجْرانَ ، والكُلُّ مُتَرَقِّبٌ مُتَلَهِّفٌ ، حَتّى إنَّ « عُمَرَ » رضي الله عنه يَقولُ : « ما تَطَلَّعْتُ إلى الإمارَةِ غَيْرَ هَذِهِ الْمَرَّةِ . . كُنْتُ أَرى الرَّسولَ ﷺ يُديرُ بَصَرَهُ في أَصْحابِهِ ، فَكُنْتُ أَرْفَعُ رَأْسي لأُريَهُ مَكاني ، ولَكِنَّهُ ما لَبِثَ أَنْ نادى أَبا عُبَيْدَةَ ، وقالَ لَهُ : «« أُخْرُجْ مَعَهُمْ ، وعَلِّمْهُمْ ، واقْضِ بَيْنَهُمْ . »» فَقُلْتُ : ذَهَبَ بِها ابْنُ الجَرّاحِ !»

وكانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » جَديرًا بِهَذا التَّشريفِ الَّذي أَسْبَغَهُ الرَّسولُ ﷺ عَلَيْهِ ، فَقَدْ كانَ الرَّسولُ القائِدُ يَعْرِفُ مَقاديرَ أَصْحابِهِ ، ويَضَعُ كُلا مِنْهُمْ في مَوْضِعِهِ اللائِقِ بِهِ ، ويَعْرِفُ خِصالَهُمْ وصِفاتِهِمْ وما تُؤَهِّلُهُمْ لَهُ مِنْ مَنْزِلَةٍ ومَكانَةٍ ، ويَعْرِفُ عَنْ صاحِبِهِ « أَبي عُبَيْدَةَ » زُهْدَهُ وتَرَفُّعَهُ ، وكَرَمَهُ وإيثارَهُ ، وحُبَّهُ لِلْجَماعَةِ ، وبُعْدَهُ عَنِ

الشِّقاقِ والخِلافِ .

أَرْسَلَ الرَّسولُ القائِدُ عَمْرَو بْنَ العاصِ في سَرِيَّةٍ إلى بَعْضِ بِلادِ الشّامِ ، فَلَمّا بَلَغَ الْمَكانَ الَّذي عَيَّنَهُ لَهُ الرَّسولُ القائِدُ - وَجَدَ جَيْشًا كَثيفًا مِنَ الرّومِ مُتأَهِّبًا لِلِقائِهِ ، فَخَشِيَ « عَمْرٌو » عَلى الْمُسْلِمينَ مِنْ هَذا اللِّقاءِ غَيْرِ الْمُتَكافِئِ ، فَبَعَثَ إلى الرَّسولِ القائِدِ في الْمَدينَةِ يُخْبِرُهُ الخَبَرَ ، ويَطْلُبُ الْمَدَدَ ، فَأَمَدَّهُ الرَّسولُ ﷺ بِمَدَدٍ فيهِ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ ، وجَعَلَ أَميرَهُ وقائِدَهُ « أَبا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرّاحِ » ، وأَوْصاهُ وَصِيَّةً قَصيرَةً بَليغَةً : « إذا قابَلْتَ عَمْرَو بْنَ العاصِ فَلا تَخْتَلِفا . »

وفي هَذا التَّكْليفِ لابْنِ الجَرّاحِ تَكْريمٌ أَيُّ تَكْريمٍ ، وتَقْديرٌ أَيُّ تَقْديرٍ ؛ إذْ يَكونُ قائِدًا لِمَدَدٍ مِنْ بَيْنِ جُنودِهِ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ !

بَلَغَ الْمَدَدُ مَكانَ « عَمْرو » ، والْتَقى أَبو عُبَيْدَةَ مَعَهُ ، فَقالَ لَهُ عَمْرٌو : « أَنا القائِدُ العامُّ ، وأَنْتُمْ جِئْتُمْ لي مَدَدًا ؛

فَأَنْتُمْ تابِعونَ لي . »

وقالَ بَعْضُ رِجالِ الْمَدَدِ : « نَحْنُ تابِعونَ لأَبي عُبَيْدَةَ وهُوَ قائِدُنا . »

فَأَسْرَعَ أَبو عُبَيْدَةَ يَحْسِمُ الأَمْرَ بِقَوْلِهِ لِعَمْرٍو : « أَنا ومَنْ مَعي تَحْتَ إِمْرَتِكَ ، فَمُرْنا كَما تَشاءُ . »

وبَلَغَ حُبُّهُ لِلإِيثارِ ، وتَقْديرُهُ لِلرِّجالِ ذِرْوَتَهُ ، حينَ انْتَقَلَ الرَّسولُ ﷺ إِلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، واجْتَمَعَ الْمُسْلِمونَ مِنْ مُهاجِرينَ وأَنْصارٍ في سَقيفَةِ بَني ساعِدَةَ ؛ لِيَخْتاروا لَهُمْ خَليفَةً مِنْ بَعْدِهِ .. حينَئِذٍ قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ لأَبي عُبَيْدَةَ :

« ابْسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ ، فَإِنّي سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ : ‹‹ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمينٌ ، وأَنْتَ أَمينُ هَذِهِ الأُمَّةِ . ›› »

فَكانَ جَوابُ أَبي عُبَيْدَةَ : « ما كُنْتُ لأَتَقَدَّمَ عَلى رَجُلٍ أَمَرَهُ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَؤُمَّنا في الصَّلاةِ في حَياتِهِ ، فَأَمَّنا حَتّى ماتَ . لَقَدِ ائْتَمَنَهُ الرَّسولُ ﷺ عَلى دينِنا ؛ فَأَحْرى

بِنا أَنْ نَأْتَمِنَهُ عَلى دُنْيانا . » ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى أَبي بَكْرٍ ، وقالَ لَهُ : « ابْسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ . »

وتَتابَعَ الْمُسْلِمونَ مِنْ وَرائِهِ يُبايِعونَ أَبا بَكْرٍ ، وكانَ لَهُ خَيْرَ ناصِحٍ ومُعينٍ ما امْتَدَّتْ بِهِ الحَياةُ ، حَتّى فاضَتْ روحُهُ إِلى بارِئِها وهُوَ راضٍ عَنْ « أَبي عُبَيْدَةَ » كَما كانَ الرَّسولُ ﷺ عَنْهُ راضِيًا .

* * *

وفي مَطْلَعِ الحَرْبِ بَيْنَ الرّومِ والْمُسْلِمينَ في خِلافَةِ أَبي بَكْرٍ - كانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » القائِدَ العامَّ لِجَيْشِ الْمُسْلِمينَ ، فَلَمّا تأَزَّمَتِ الأُمورُ بَيْنَ الرّومِ والْمُسْلِمينَ ، واشْتَدَّتِ الحَرْبُ ، بَعَثَ أَبو بَكْرٍ خالِدَ بْنَ الوَليدِ قائِدًا لِلْجَيْشِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ « أَبو عُبَيْدَةَ » خَيْرَ اسْتِقْبالٍ ، وسَلَّمَهُ القِيادَةَ بِنَفْسٍ راضِيَةٍ ، وقَلْبٍ صافٍ ، فَما كانَ مُحِبًّا لِلرِّياسَةِ ، ولا عامِلاً مِنْ أَجْلِ السُّلْطانِ .

ولَمّا تَوَلّى عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ الخِلافَةَ ، خَشِيَ أَنْ يُفْتَتَنَ

الْمُسلِمونَ بِخالِدِ بْنِ الوَليد ، أَوْ يَأْخُذَهُ الغُرورُ بِما أَجْرى اللهُ عَلى يَدَيْهِ مِنْ نَصْرٍ ، فَعَزَلَهُ عَنْ قِيادَةِ الجَيْشِ ، وجَعَلَها لِـ « أَبي عُبَيْدَةَ » ؛ فَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ خالِدٍ دِرايَةً بِأُمورِ الإِدارَةِ والسِّياسَةِ ، وكانَ هَذا ما يَحْتاجُهُ الْمُسْلِمونَ في الشّامِ بَعْدَ هَذِهِ الانْتِصاراتِ الكَثيرَةِ ، في رَأْيِ « عُمَرَ » واجْتِهادِهِ .

وَصَلَتْ رِسالَةُ « عُمَرَ » ، وتَسَلَّمَها « أَبو عُبَيْدَةَ » ، فَكَتَمَ أَمْرَها وأَخْفاها ، وظَلَّ يُحارِبُ تَحْتَ قِيادَةِ « خالِدٍ » ، ويُصَلّي خَلْفَهُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ ؛ فَقَدْ كانَتْ هُناكَ مَعْرَكَةٌ ضارِيَةٌ ، تَدورُ رَحاها بَيْنَ الرّومِ والْمُسْلِمينَ . فَلَمّا انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ ، وتَحَقَّقَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمينَ – قَدَّمَ أَبو عُبَيْدَةَ رِسالَةَ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ لِخالِدٍ ، فَقالَ لَهُ خالِدٌ :

« يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، جاءَكَ كِتابُ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ بِالوِلايَةِ ، فَلِمَ لَمْ تُعْلِمْني ، وظَلِلْتَ تُصَلّي خَلْفي ، وتُطيعُ أَمْري ، والسُّلْطانُ سُلْطانُكَ ؟ »

فَأَجابَهُ « أَبو عُبَيْدَةَ » في سَماحَةِ نَفْسٍ ، ورِضا قَلْبٍ :

« ويَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، يا أَخي ! ما كُنْتُ لأَكْسِرَ عَلَيْكَ انْتِصارَكَ . . ما سُلْطانَ الدُّنْيا أُريدُ ، ولا مِنْ أَجْلِهِ نَعْمَلُ ، وإِنَّما نَسْمَعُ لأَمْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ونُطيعُ ! »

فَسَلَّمَهُ خالِدٌ القِيادَةَ ، ومَضى جُنْدِيًّا مِنْ جُنودِ الْمُسْلِمينَ تَحْتَ لِوائِهِ ، ومُشيرًا مُخْلِصًا لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ ، كَما فَعَلَ « أَبو عُبَيْدَةَ » مِنْ قَبْلُ !

لَقَدْ كانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » زاهِدًا في مَتاعِ الدُّنْيا ، مُقْبِلاً عَلى الآخِرَةِ ، يَبْتَغي مَرْضاةَ رَبِّهِ في كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ ، أَوْ عَمَلٍ يَجْتَنِبُهُ ، لا يَحْفِلُ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا إلا بِما يَحْفَظُ عَلَيْهِ حَياتَهُ ، ويُعينُهُ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وتَصْريفِ شُئونِ الْمُسْلِمينَ . . فَحينَ فَتَحَ اللهُ عَلى الْمُسْلِمينَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وطَلَبَ زُعَماؤُهُ أَنْ يَأْتِيَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ لِيُوَقِّعَ مَعَهُمْ عَقْدَ الأَمانِ ، ويَتَسَلَّمَ مِفْتاحَ الْمَدينَةِ ، وحَضَرَ « عُمَرُ » ، وكانَ في اسْتِقْبالِهِ أُمَراءُ الجُنودِ ، ولَكِنَّ

« أَبا عُبَيْدَةَ » كانَ مَشْغولاً بِبَعْضِ أُمورِ الْمُسْلِمينَ ، فَلَمْ يَكُنْ في اسْتِقْبالِهِ ، فَقالَ عُمَرُ : « أَيْنَ أَخي أَبو عُبَيْدَةَ ؟ »

فَقالوا : « يَأْتي بَعْدَ قَليلٍ . »

وما لَبِثَ أَنْ جاءَ فَسَلَّمَ عَلى عُمَرَ ، الَّذي قالَ لَهُ : « هَلُمَّ بِنا إِلى بَيْتِكَ . »

قالَ أَبو عُبَيْدَةَ : « وما تُريدُ أَنْ تَصْنَعَ عِنْدي ؟ هَلْ تُريدُ أَنْ تَعْصِرَ عَيْنَيْكَ عَلَيَّ ؟ » أَيْ سَوْفَ تَجِدُ عِنْدي ما يَجْعَلُكَ تَبْكي بُكاءً شَديدًا .

ودَخَلَ « عُمَرُ » بَيْتَ « أَبي عُبَيْدَةَ » أَميرِ الشّامِ وقائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ ، فَلَمْ يَجِدْ فيهِ أَثاثًا ذا بالٍ ، فَقالَ لَهُ : « أَيْنَ مَتاعُكَ ؟ إِنّي لا أَرى غَيْرَ بِساطٍ مِنْ صوفٍ ، وقِرْبَةٍ صَغيرَةٍ ، وإِناءٍ وقِدْرٍ ، وأَنْتَ الأَميرُ . هَلْ عِنْدَكَ طَعامٌ ؟ »

فَقامَ « أَبو عُبَيْدَةَ » إِلى القِدْرِ فَأَخْرَجَ مِنْها كُسَيْراتٍ مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ ، وقَدَّمَها لأَميرِ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ ، فَبَكى عُمَرُ بُكاءً شَديدًا !

قالَ لَهُ أَبو عُبَيْدَةَ : « أَما قُلْتُ لَكَ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، إِنَّكَ سَتَعْصِرُ عَيْنَيْكَ عَلَيَّ ؟ »

* * *

عاشَ « أَبو عُبَيْدَةَ » في خِلافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ناصِحًا لَهُ ، مُطيعًا أَوامِرَهُ ، لَمْ يَعْصِهِ ويُخالِفْهُ إِلا في أَمْرٍ واحِدٍ !

حَدَثَ ذَلِكَ في السَّنَةِ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ ، عِنْدَما كانَ « أَبو عُبَيْدَةَ » أَميرًا على الشّامِ ، وقائِدًا لِجُيوشِ الْمُسْلِمينَ ، وحَلَّ بِبِلادِ الشّامِ وَباءٌ فَتَكَ بِالنّاسِ فَتْكًا ذَريعًا ، وحَصَدَ الأَرْواحَ حَصْدًا شَديدًا ، عُرِفَ بِطاعونِ عَمْواسَ ، نِسْبَةً إِلى بَلْدَةٍ بِفِلَسْطينَ كانَ بَدْءُ ظُهورِهِ فيها .

وخَشِيَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عَلى « أَبي عُبَيْدَةَ » أَنْ يُصيبَهُ الطّاعونُ ، وقَلِقَ عَلَيْهِ قَلَقًا بالِغًا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رِسالَةً يَقولُ فيها : « إِنَّهُ قَدْ عَرَضَتْ لي حاجَةٌ ، لا غِنى لي فيها عَنْ مُشافَهَتِكَ ، فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلا أَسْرَعْتَ إِلَيَّ حينَما يَأْتيكَ كِتابي ، ولا تُبْطِئْ . »

وفَطِنَ « أبو عُبَيْدَةَ » لِمَقصودِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ ، فَهُوَ يُريدُ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنَ الأَرْضِ الَّتي حَلَّ فيها هَذا الوَباءُ الجارِفُ باسْتِقْدامِهِ إلى الْمَدينَةِ . وكَتَبَ أَبو عُبَيْدَةَ إلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ : « يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، قَدْ عَرَفْتُ حاجَتَكَ إلَيَّ ، وإنّي في جُنْدِ الْمُسْلِمينَ لا أَجِدُ في نَفْسي رَغْبَةً عَنِ الَّذي يُصيبُهُمْ ، ولا أَرْغَبُ في فِراقِهِمْ - حَتّى يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَهُ فِيَّ وفيهِمْ .

« فَإذا جاءَكَ كِتابي ، فَأُقْسِمُ عَلَيْكَ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، أَنْ تُحَلِّلَني مِنْ عَزْمِكَ عَلَيَّ ، وتَأْذَنَ لي بِالبَقاءِ بَيْنَ جُنْدي ! »

قَرَأَ « عُمَرُ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كِتابَ « أَبي عُبَيْدَةَ » ؛ فَفاضَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ ، فَقالَ الصَّحابَةُ الحاضِرونَ في صَوْتٍ واحِدٍ وفي لَهْفَةٍ : « أَماتَ أَبو عُبَيْدَةَ ؟ »

فَأَجابَهُمْ « عُمَرُ » : « لا ، ولَكِنَّ الْمَوْتَ مِنْهُ قَريبٌ ! »

وصَدَقَ ظَنُّ « عُمَرَ » ، فَبَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ أَصابَهُ

الطّاعونُ ، ولَمّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ أَوْصى جُنودَهُ بِأَنْ يُقيموا الصَّلاةَ ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ ، ويُؤَدّوا ما أَمَرَهُمْ بِهِ الدّينُ الحَنيفُ ، وأَنْ يُخْلِصوا النُّصْحَ لأُمَرائِهِمْ ، وأَنْ يَتَخَفَّفوا مِنْ أَحْمالِ الدُّنْيا ومَتاعِها ما اسْتَطاعوا إلى ذَلِكَ سَبيلاً ؛ فَإنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بالِغٌ مَصْرَعَهُ كَهَذا الْمَصْرَعِ الَّذي هُوَ فيهِ !

ثُمَّ الْتَفَتَ - رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ - إلى « مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ » وقالَ لَهُ : « صَلِّ بِالنّاسِ . »

وما لَبِثَ إلا قَليلاً حَتّى فاضَتْ روحُهُ الطّاهِرَةُ إلى بارِئِها ، فَوَقَفَ « مُعاذٌ » يَبْكيهِ ، وقالَ : « إنَّكُمْ فُجِعْتُمْ بِرَجُلٍ ما أَزْعُمُ - واللهِ - أَنّي رَأَيْتُ مِنْ عِبادِ اللهِ قَطُّ أَقَلَّ حِقْدًا ، ولا أَبَرَّ صَدْرًا ، ولا أَشَدَّ حَياءً ، ولا أَنْصَحَ لِلْعامَّةِ مِنْهُ ، فَتَرَحَّموا عَلَيْهِ يَرْحَمْكُمُ اللهُ ! »

وكانَتْ سِنُّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَقْتَرِبُ مِنَ الثّامِنَةِ والخَمْسينَ .

* * *

ابْنُ الكَريمِ
عَدِيُّ بْنُ حاتِمٍ

يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِأَبيهِ « حاتِمِ الطّائِيِّ » في الجودِ والكَرَمِ ، والرِّياسَةِ والشَّرَفِ ، والْمُروءَةِ والشَّهامَةِ . وقَدْ وَرِثَ « عَدِيٌّ » عَنْ أَبيهِ رِئاسَةَ قَوْمِهِ ، فَقَلَّدوهُ أَمْرَهُمْ ، ونَصَّبوهُ مَلِكًا عَلَيْهِمْ ، يَفْعَلونَ ما يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، ويَجْتَنِبونَ ما يَنْهاهُمْ عَنْهُ ، ويُعطونَهُ الرُّبْعَ مِمّا يَغْنَمونَ كَغَيْرِهِ مِنْ سائِرِ مُلوكِ العَرَبِ .

ولَمّا فَشا الإِسْلامُ في أَرْضِ العَرَبِ ، وكادَتْ تَدينُ لَهُ الْجَزيرَةُ كُلُّها ، وأَخَذَ النّاسُ يَدْخُلونَ فيهِ أَفْواجًا – ضاقَ « عَدِيٌّ » بِالإِسْلامِ ضيقًا شَديدًا ، ونَفَرَ مِنْهُ نُفورًا قَوِيّا ، وكَرِهَ الرَّسولَ ﷺ أَشَدَّ ما يَكونُ الكُرْهُ ، وهُوَ لا يَعْرِفُهُ ، وأَبْغَضَهُ أَقْوى ما يَكونُ البُغْضُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَراهُ ؛ فَقَدْ رَأى

في غَلَبَةِ الإِسْلامِ قَهْرًا لِسُلْطانِهِ ، وزَوالاً لِكِيانِهِ ، وانْتِقاصًا مِنْ شَأْنِهِ . لَقَدْ خَشِيَ أَنْ يَخْرُجَ النّاسُ مِنْ طاعَتِهِ ، ويَنْفَرِطَ عِقْدُ مُلْكِهِ حينَما يَعْتَنِقونَ الإِسْلامَ ، ويَدينونَ بِالطّاعَةِ لِلرَّسولِ ﷺ !

واسْتَبَدَّتْ بِهِ خَشْيَتُهُ هَذِهِ ، واسْتَوْلى عَلَيْهِ الْجَزَعُ ، خاصَّةً وقَدْ رَأى جُيوشَ الْمُسْلِمينَ وسَراياهُمْ تَروحُ وتَجيءُ في أَرْضِ العَرَبِ ، وسَمِعَ عَنْ وُفودِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ ، الَّتي تَتَوالى عَلى الْمَدينَةِ ، تُعْلِنُ اعْتِناقَها لِلإِسْلامِ ، ودُخولَها في طاعَةِ الرَّسولِ . وأَدْرَكَ أَنَّ جُيوشَ الْمُسْلِمينَ باتَتْ قَريبَةً مِنْهُ ، وأَنَّ يَوْمَهُ آتٍ لا شَكَّ فيهِ ، فَراحَ يَتَدَبَّرُ أَمْرَهُ ، ويُفَكِّرُ مَلِيّا في طَريقَةٍ يُرْضي بِها كِبْرِياءَهُ ، ويَحْتَفِظُ فيها بِجاهِهِ وسُلْطانِهِ ، فَلَمْ يَصِلْ بِفِكْرِهِ إِلى رَأْيٍ ، ولَمْ يَسْتَقِرَّ أَمْرُهُ عَلى حالٍ ، فَعَزَمَ عَلى أَنْ يَفِرَّ بِنَفْسِهِ وأَهْلِهِ حينَ يَقْتَحِمُ الْمُسْلِمونَ أَرْضَهُ ، ويَهْرُبَ مِنْ مُواجَهَةٍ لا طاقَةَ لَهُ بِها ، ولا مُعينَ لَهُ عَلَيْها . ومِنْ ثَمَّ اسْتَدْعى غُلامًا مِنْ غِلْمانِهِ ، يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ في

ساعَةِ الكَرْبِ ، وقالَ لَهُ : « جَهِّزْ جَماعَةً مِنَ النّوقِ القَوِيَّةِ النَّجيبَةِ السَّريعَةِ ، وقَرِّبْها مِنّي ، وإذا رَأَيْتَ جُيوشَ الْمُسْلِمينَ تَطَأُ أَرْضَنا ، أَوْ تَقْتَرِبُ مِنْها ، أَوْ سَمِعْتَ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ - فَأَعْلِمْني . »

نَفَّذَ الغُلامُ أَمْرَ سَيِّدِهِ ، فَأَعَدَّ النّوقَ ، وقَرَّبَها مِنْ مَوْطِنِ سَيِّدِهِ ، وأَحَدَّ بَصَرَهُ لِيَرى ، وأَرْهَفَ أُذُنَيْهِ لِيَسْمَعَ . ولَبِثَ سَيِّدُهُ خائِفًا يَتَرَقَّبُ !

وذاتَ يَوْمٍ جاءَهُ الغُلامُ فَزِعًا مَذْعورًا ، وقالَ لَهُ : « ماذا كُنْتَ تَنْوي أَنْ تَفْعَلَ ، يا سَيِّدي ، إذا وَطِئَتْ خَيْلُ الْمُسْلِمينَ أَرْضَكَ ؟ »

فَأَجابَهُ « عَدِيٌّ » في لَهْفَةٍ وجَزَعٍ : « ولِمَ ؟ »

قالَ الغُلامُ « لَقَدْ رَأَيْتُ خَيْلاً تَجوسُ خِلالَ الدِّيارِ ، فَسَأَلْتُ عَنْها فَقيلَ لي : ‹‹ إنَّها خَيْلُ الْمُسْلِمينَ . ›› فَأَسْرَعْتُ أُعْلِمُكَ كما أَمَرْتَني . »

صاحَ « عَدِيٌّ » في غُلامِهِ : « أَسْرِعْ إلى النّوقِ الَّتي

أَمَرْتُكَ بِإعْدادِها وتَجْهيزِها . »

ونَهَضَ « عَدِيٌّ » مِنْ فَوْرِهِ ، ودَعا إلَيْهِ أَهْلَهُ وأَوْلادَهُ ، وحَمَلَ ما اسْتَطاعَ حَمْلَهُ مِنْ مالِهِ ومَتاعِهِ ، وراحَ يُغِذُّ السَّيْرَ بَعيدًا عَنْ وَطَنِهِ ، مُفارِقًا مَسْقَطَ رَأْسِهِ ، ومَرْتَعَ صِباهُ ، ومَهْوى فُؤادِهِ - حَتّى لَحِقَ بِأَرْضِ الشّامِ ، وهُناكَ أَلْقى عَصاهُ ، واسْتَقَرَّ بِهِ الْمُقامُ .

ويَبْدو أَنَّ خَوْفَهُ وجَزَعَهُ أَذْهَلَهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِهِ ، وأَعْجَلَهُ عَنِ اسْتِقْصائِهِمْ ، فَخَلَّفَ أُخْتًا لَهُ وَراءَهُ ، وتَرَكَها بَيْنَ قَوْمِها الَّذين تَنَحّى عَنْهُمْ ، وفَرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ !

وداسَتْ خُيولُ الْمُسْلِمينَ أَرْضَ طَيِّئٍ ، وكانَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَيْنِ الأَسيراتِ ! وتَناهَتْ إلَيْهِ أَخْبارُها ، فَلَمْ يَمْلِكْ إلا الْجَزَعَ عَلَيْها ، والنَّدَمَ عَلى ما فَرَطَ مِنْهُ في حَقِّها .

* * *

سيقَتِ ابْنَةُ حاتِمٍ الطّائِيِّ إلى الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، و وُضِعَتْ مَعَ غَيْرِها مِنَ الأَسيراتِ في مَكانٍ قَريبٍ مِنْ

بابِ الْمَسْجِدِ . وحينَ مَرَّ رَسولُ اللهِ ﷺ أَمامَهُنَّ ؛ وَقَفَتْ وقالَتْ : « يا مُحَمَّدُ ، هَلَكَ الوالِدُ ، وامْتَنَعَ الوافِدُ ، فَامْنُنْ عَلَيَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ . »

فَقالَ لَها : « ومَنْ وافِدُكِ ؟»

قالَتْ : « عَدِيُّ بْنُ حاتِمٍ . »

قال : « الفارُّ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ ؟»

ثُمَّ تَرَكَها ومَضى . فَلَمّا كانَ اليَوْمُ الثّاني وأَبْصَرَتْ رَسولَ اللهِ يَمُرُّ أَمامَها - نَهَضَتْ وقالَتْ مِثْلَ مَقالَتِها بِالأَمْسِ ، ولَكِنَّ الرَّسولَ ﷺ تَرَكَها ومَضى . فَلَمّا كانَ اليَوْمُ الثّالِثُ ، وشاهَدَتْهُ يَمُرُّ أَمامَها ، لَمْ تَنْهَضْ ولَمْ تُكَلِّمْهُ ، وكانَ وراءَهُ رَجُلٌ فَأَشارَ إِلَيْها أَنْ قومي وكَلِّميهِ ، فَنَهَضَتْ وقالَتْ مِثْلَ مَقالَتِها السّالِفَةِ ، فَقالَ لَها الرَّسولُ الكَريمُ :

« قَدْ فَعَلْتُ ؛ كانَ أَبوكِ يَحُضُّ على مَكارِمِ الأَخْلاقِ . »

قالَتْ : « أُريدُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَهْلي في بِلادِ الشّامِ . »

فَقالَ لَها الرَّسولُ الأَمينُ : « لَكِنْ لا تَعْجَلي في أَمْرِكِ . ومَتى وَجَدْتِ رُفْقَةً مَأْمونَةً تَثِقينَ بِها فَأَخْبِريني . »

ولَمْ تَمْضِ غَيْرُ أَيّامٍ قَليلَةٍ حَتّى عَلِمَتْ بِأَنَّ رَهْطًا مِنْ قَوْمِها يَمُرّونَ بِالْمَدينَةِ في طَريقِهِمْ إِلى الشّامِ ، فَهَرْوَلَتْ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ تُخْبِرُهُ ، فَأَعْطاها ناقَةً تَحْمِلُها ، وزادًا يَكْفيها ، وكَساها ، وأَرْسَلَها مَعَ القَوْمِ عَزيزَةً مُكَرَّمَةً .

وبَلَغَتْ هَذِهِ الأَنْباءُ « عَدِيًّا » وهُوَ في أَرْضِ الشّامِ ؛ فَلَمْ يُصَدِّقْ ما سَمِعَ ، وطَفِقَ يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ يَتَرَقَّبُ القَوافِلَ القادِمَةَ مِنَ الْمَدينَةِ ، ويَتَنَسَّمُ أَخْبارَ أُخْتِهِ . وغَداةَ يَوْمٍ شاهَدَ هَوْدَجًا عَلى ناقَةٍ ، فَتَمَنّى في نَفْسِهِ أَنْ تَكونَ أُخْتَهُ ، فَإِذا هِيَ !

أَخَذَ « عَدِيٌّ » يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ بِأَصابِعِهِ لِيَتَحَقَّقَ مِمّا رَأى ، فَقَدْ تَكونُ عَلَيْهِما غِشاوَةٌ . وراحَ يَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَدَمِهِ لِيَتَثَبَّتَ مِنْ يَقَظَتِهِ ؛ فَقَدْ يَكونُ حُلْمًا جَسَّمَ أُمْنِيَّتَهُ ،

وشَخَّصَ خَيالَهُ !

ولَكِنْ ها هِيَ ذي تَهْبِطُ مِنْ هَوْدَجِها ، وتَعْتِبُ عَلَيْهِ عَتْبًا شَديدًا ، وتَلومُهُ لَوْمًا عَنيفًا ، وتَقولُ : « لَقَدْ قَطَعْتَ رَحِمَكَ ، وخَلَّفْتَ عَوْرَتَكَ ، ولَمْ تُعْنَ بِغيرِ زَوْجِكَ و وَلَدِكَ . »

فَطَفِقَ يَتَرَضّاها ، ويَعْتَذِرُ لَها عَمّا اقْتَرَفَهُ في حَقِّها ، حَتّى رَضِيَتْ عَنْهُ . فَقالَ لَها : « ما كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُحْسِنَ مُحَمَّدٌ إِلَيْكِ ، ويَتَرَفَّقَ بِكِ ، وقَدْ فَعَلْتُ مَعَهُ ما فَعَلْتُ . »

قالَتْ : « نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ ! لَقَدْ وَعى لأَبينا كَرَمَهُ ، وحَفِظَ لَهُ مُروءَتَهُ وشَرَفَهُ . وأَرى أَنْ تَلْحَقَ بِهِ ؛ فَلِلسّابِقِ إِلَيْهِ فَضْلٌ ! »

* * *

أَصْغى « عَدِيٌّ » إِلى نَصيحَةِ أُخْتِهِ ، واسْتَجابَ لِمَشورَتِها ، وتَجَهَّزَ قاصِدًا الْمَدينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، يَحُثُّهُ عَلى السَّيْرِ دافِعٌ قَوِيٌّ ، لا يَسْتَطيعُ لَهُ مُقاوَمَةً ولا عَلَيْهِ امْتِناعًا ،

ويُؤْنِسُهُ في سَفَرِهِ ما بَلَغَ مَسامِعَهُ مِنْ أَنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ :

« إِنّي لأَرْجو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ يَدَ عَدِيٍّ في يَدي ! »

وقَدِمَ الْمَدينَةَ مِنْ غَيْرِ كِتابٍ ولا أَمانٍ ، ودَخَلَ عَلى الرَّسولِ ﷺ في الْمَسْجِدِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَفَعَ الرَّسولُ الْكَريمُ رَأْسَهُ ، وقالَ : « مَنِ الرَّجُلُ ؟ »

فَأَجابَ : « عَدِيُّ بْنُ حاتِمٍ . »

فَنَهَضَ الرَّسولُ الْكَريمُ ، وأَخَذَ بِيَدِهِ ، وانْطَلَقَ بِهِ إِلى بَيْتِهِ . فَلَمّا بَلَغا الْبَيْتَ تَناوَلَ الرَّسولُ الْكَريمُ وِسادَةً مَحْشُوَّةً ليفًا ، وقَدَّمَها إِلى « عَدِيٍّ » لِيَجْلِسَ عَلَيْها ، فَاسْتَحْيا « عَدِيٌّ » أَنْ يَجْلِسَ عَلَيْها ، ورَدَّها قائِلاً : « بَلْ تَجْلِسُ عَلَيْها أَنْتَ . »

ولَكِنَّ الرَّسولَ الْكَريمَ أَلْقاها إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرى ، فَجَلَسَ عَلَيْها ، والرَّسولُ الأَمينُ جالِسٌ عَلى الأَرْضِ . فَقالَ « عَدِيٌّ » في نَفْسِهِ : « ما هَذا ، واللهِ ، شَأْنَ مَلِكٍ ! »

ثُمَّ قالَ الرَّسولُ ﷺ : « يا عَدِيُّ ، لَعَلَّ ما يَمْنَعُكَ مِنَ

الدُّخولِ في الإسْلام ما تَراهُ مِنْ قِلَّةِ الْمُسْلِمينَ وكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ . واللهِ ، لَيوشِكَنَّ الأَمْرُ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرُجُ مِنَ الحيرَةِ عَلى بَعيرِها حَتّى تَبْلُغَ هَذا البَيْتَ ، لا تَخافُ أَحَدًا إلا اللهَ !

« ولَعَلَّ ما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلام ما تَراهُ مِنْ فَقْرِ الْمُسْلِمينَ وحاجَتِهِمْ . واللهِ ، لَيوشِكَنَّ الْمالُ أَنْ يَفيضَ عَلَيْهِمْ حَتّى لا يوجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ !

« ولَعَلَّ ما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلام أَنَّكَ تَرى الْمُلْكَ والسُّلْطانَ في أَيْدي غَيْرِ الْمُسْلِمينَ . واللهِ ، لَيوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِقُصورِ الْمَدائِنِ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ ، وأَنَّ كُنوزَ كِسْرى في أَيْديهِمْ !»

فَقالَ « عَدِيٌّ » في دَهْشَةٍ واسْتِغْرابٍ : « كُنوزُ كِسْرى ابْنِ هُرْمُزَ ؟»

فَأَعادَها الرَّسولُ الكَريمُ مُؤَكِّدًا : « نَعَمْ ، كُنوزُ كِسْرى ابْنِ هُرْمُزَ . »

عِنْدَئِذٍ شَهِدَ « عَدِيٌّ » شَهادَةَ الْحَقِّ ، وأَعْلَنَ إسْلامَهُ .

* * *

ومَدَّ اللهُ في عُمْرِ « عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ » ، وكانَ يَقولُ : « لَقَدْ تَحَقَّقَت اثْنَتانِ مِمّا أَخْبَرَني بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ . وايْمُ اللهِ ، لا بُدَّ أَنْ تَتَحَقَّقَ الثّالِثَةُ . . لَقَدْ رَأَيْتُ الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ عَلى بَعيرِها مِنَ الحيرَةِ ، لا تَخْشى شَيْئًا حَتّى تَبْلُغَ هَذا البَيْتَ .

« وكُنْتُ في طَليعَةِ الْجَيْشِ الَّذي فَتَحَ بِلادَ كِسْرى ، وغَنِمَ كُنوزَهُ .

« وأُقْسِمُ بِاللهِ لَتَجيئَنَّ الثّالِثَةُ . »

وجاءَتِ الثّالِثَةُ ، فَقَدْ فاضَتِ الأَمْوالُ عَلى الْمُسْلِمينَ في عَهْدِ « عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيزِ » ، وخَرَجَ الْمُنادونَ يَبْحَثونَ عَنْ فُقَراءَ يَأْخُذونَ أَمْوالَ الزَّكاةِ ؛ فَلَمْ يَجِدوا أَحَدًا !

لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى الْمُسْلِمينَ ، وصَدَّقَ رَسولَهُ الأَمينَ !

واعِظُ دِمَشْقَ
أَبو الدَّرْداءِ

أَسْفَرَ الصُّبْحُ في الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وأَفاقَ « عُوَيْمِرُ بْنُ زَيْدٍ الخَزْرَجيُّ » ، الَّذي يُكَنّى « أَبا الدَّرْداءِ » ؛ فَقَدْ كانَتْ لَهُ طِفْلَةٌ جَميلَةٌ اسْمُها « الدَّرْداءُ » - أَفاقَ مِنْ نَوْمِهِ ، ومَضى إلى حُجْرَةٍ في بَيْتِهِ ، كانَ لَهُ فيها صَنَمٌ يَسْجُدُ لَهُ ، ويَتَقَرَّبُ إلَيْهِ - مَضى إلَيْهِ فَغَسَلَهُ ونَظَّفَهُ ، وطَيَّبَهُ ، وأَلْبَسَهُ ثَوْبًا مِنَ الحَريرِ الفاخِرِ ، كانَ قَدْ أَهْداهُ إلَيْهِ واحِدٌ مِنْ تُجّارِ اليَمَنِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ إلى مَتْجَرِهِ .

وبَيْنَما هُوَ في طَريقِهِ إلى مَتْجَرِهِ - رَأى طُرُقاتِ الْمَدينَةِ تَموجُ بِالْمُسْلِمينَ العائِدينَ مِنْ بَدْرٍ ، يَسْتَبْشِرونَ بِالنَّصْرِ الَّذي أَجْراهُ اللهُ عَلى أَيْديهِمْ ، تَتَلأْلأُ وُجوهُهُمْ بِالْبِشْرِ ، وتَفيضُ بِالسُّرورِ ؛ فَلَوّى وَجْهَهُ بَعيدًا عَنْهُمْ ، وسَلَكَ

طَريقَهُ إلى مَتْجَرِهِ . ولَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ في طَريقِهِ إلا خُطُواتٍ قَليلَةً حَتّى تَوَقَّفَ ، وانْعَطَفَ إلى واحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمينَ ، وسَأَلَهُ عَنْ صَديقِهِ « عَبْدِ اللهِ بْنِ رَواحَةَ » ، ماذا حَدَثَ لَهُ ؟ فَأَجابَهُ بِأَنَّهُ بِخَيْرٍ لَمْ يَمْسَسْهُ سوءٌ ، وأَنَّهُ عادَ مُنْتَصِرًا مَعَ الْمُنْتَصِرينَ ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، واسْتَراحَ خاطِرُهُ، ومَضى لِشَأْنِهِ !

وكانَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ رَواحَةَ » صَديقًا حَميمًا لِـ « أَبي الدَّرْداءِ » ، رَبَطَتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَلْبَيْهِما ، وتَوَثَّقَتْ عُرى الْمَحَبَّةِ بَيْنَهُما ، فَلَمّا أَشْرَقَ فَجْرُ الإسْلامِ اسْتَضاءَ بِنورِهِ قَلْبُ « عَبْدِ اللهِ » ، ولَكِنَّ صَديقَهُ ظَلَّ على شِرْكِهِ ، ولَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الصَّديقَيْنِ ، ويَقْضِيَ على ما بَيْنَهُما مِنْ أُلْفَةٍ يَعْرِفُها الجَميعُ ، بَلْ ظَلَّ « عَبْدُ اللهِ » يَوَدُّ صَديقَهُ ، ويَحْرِصُ عَلى دَعْوَتِهِ إلى الإسْلامِ لِيَنالَ مِنَ الخَيْرِ الَّذي أَفاضَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، ولِيَنْعَمَ بِصُحْبَةِ الرَّسولِ ﷺ ، ولَكِنَّ صاحِبَهُ « أَبو الدَّرْداءِ » ظَلَّ عَنِ الإسْلامِ بَعيدًا .

بَلَغَ « أَبو الدَّرْداءِ » في ذَلِكَ اليَوْمِ مَتْجَرَهُ ، وراحَ يَبيعُ

ويَشْتَري ، وهُوَ هادِئُ النَّفْس ، مُطْمَئِنُّ البالِ ، لا يَدْري شَيْئًا عَمّا يَحْدُثُ في دارِهِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ صاحِبَهُ « عَبْدَ اللهِ » سَعى إلى بَيْتِهِ ، فَوَجَدَ بابَهُ مَفْتوحًا ، ولَمّا أَبْصَرَتْهُ « أُمُّ الدَّرْداءِ » رَحَّبَت بِهِ ، فَسَأَلَها :

« أَيْنَ أَبو الدَّرْداءِ ؟»

« خَرَجَ إلى مَتْجَرِهِ مُنْذُ قَليلٍ . »

« أَ تَأْذَنينَ لي بِالدُّخولِ ؟»

« تَفَضَّلْ . »

وتَنَحَّتْ « أُمُّ الدَّرْداءِ » لَهُ عَنِ البابِ ، وتَرَكَتْهُ يَدْخُلُ ، وذَهَبَتْ لِتَرْعى شُئُونَ بَيْتِها وأَبْنائِها . وانْطَلَقَ « عَبْدُ اللهِ » إلى الحُجْرَةِ الَّتي تَضُمُّ الصَّنَمَ بَيْنَ جَنَباتِها ، وأَخْرَجَ قَدومًا كانَ قَدْ أَحْضَرَهُ مَعَهُ ، وطَفِقَ يُكَسِّرُ الصَّنَمَ قِطَعًا صَغيرَةً .
ولَمّا فَرَغَ مِنَ عَمَلِهِ نادى « أُمَّ الدَّرْداءِ » فَاسْتَأْذَنَها وخَرَجَ !

تَعَجَّبَتْ « أُمُّ الدَّرْداءِ » مِنْ حال « عَبْدِ اللهِ » : فيمَ جاءَ ؟ وفيمَ ذَهَبَ ؟

لَقَدْ أَنْبَأَتْهُ أَنَّ صاحِبَهُ في دُكّانِهِ ، **فَلَمْ يُفَكِّرْ في** الذَّهابِ إِلَيْهِ كما كانَ يَفْعَلُ في كُلِّ مَرَّةٍ . ثُمَّ . . لِماذا دَخَلَ مُسْرِعًا إلى بَيْتِ الصَّنَمِ ؟ أَتُراهُ . . ؟ لا . أَ تُراهُ تَخَلّى عَنِ الإِسْلامِ وعادَ إلى عِبادَةِ الأَصْنامِ ؟ لا . . لا أَظُنُّ ذَلِكَ . إِنَّهُ دائِمُ الإِلْحاحِ عَلى صاحِبِهِ لِيَدْخُلَ في دينِ الإِسْلامِ . آهٍ ! تُرى ماذا صَنَعَ « عَبْدُ اللهِ » في بَيْتِ الصَّنَمِ ؟ لَقَدْ مَكَثَ فيهِ زَمَنًا طَويلاً . فَلأَذْهَبْ لأَرى !

ومَشَتْ إلى بَيْتِ الصَّنَمِ فَهالَها ما رَأَتْ ، وأَفْزَعَها ما وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْناها ! لَقَدْ حَطَّمَ « عَبْدُ اللهِ » الصَّنَمَ تَحْطيمًا شَديدًا ، وبَعْثَرَ أَشْلاءَهُ في الحُجْرَةِ .

وقَعَدَتْ « أُمُّ الدَّرْداءِ » عَلى بابِ الحُجْرَةِ تَبْكي وتُوَلْوِلُ ، وتَقولُ :

« أَهْلَكْتَني ، يا بْنَ رَواحَةَ ! ضَيَّعْتَني ، يا بْنَ رَواحَةَ !»

وفي الظَّهيرَةِ عادَ « أَبو الدَّرْداءِ » مِنْ مَتْجرِهِ ، لِيَنْعَمَ بِقِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ في دارِهِ ، فَأَلْفى امْرَأَتَهُ باكِيَةً حَزينَةً ،

فَسَأَلَها :

« ماذا حَدَثَ ، يا أُمَّ الدَّرْداءِ ؟ »

فَأَجابَتْهُ : « لَقَدْ جاءَ أَخوكَ عَبْدُ اللهِ في غِيابِكَ وصَنَعَ بِصَنَمِكَ صَنيعًا لا تَرْضاهُ . »

فَسَأَلَها في استِنْكارٍ : « ماذا صَنَعَ ؟ »

أَجابَتْهُ : « اِذْهَبْ لِتَرى بِنَفْسِكَ . »

ودَخَلَ « أبو الدَّرْداءِ » الْحُجْرَةَ ، فَوَجَدَ صَنَمَهُ قِطَعًا صَغيرَةً ، تَمْلأُ أَرْجاءَ الْحُجْرَةِ ، فَنَفَرَتْ نَفْسُهُ بادِئَ الأَمْرِ مِنْ صاحِبِهِ ، وضاقَتْ بِصَنيعِهِ ، وكَرِهَ مِنْهُ اعْتِداءَهُ على صَنَمِهِ ، واسْتِغْلالَهُ لِصَداقَتِهِ . . ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ راجَعَ نَفْسَهُ وثابَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ ، فَقالَ في نَفْسِهِ : « لَوْ كانَ هَذا إِلَهًا لاسْتَطاعَ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِهِ ! »

ثُمَّ انْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْ صاحِبِهِ « عَبْدِ اللهِ » ، فَما إِنْ وَجَدَهُ حَتّى أَسْرَعَ مَعَهُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ يُعْلِنُ إِسْلامَهُ ، فَرَحَّبَ بِهِ الرَّسولُ الكَريمُ وقالَ :

« إنَّ اللهَ وَعَدَني إِسْلامَ أَبي الدَّرْداءِ . »

وكانَ « أَبو الدَّرْداءِ » آخِرَ أَهْلِ حَيِّهِ إِسْلامًا !

***

أَسْلَمَ « أَبو الدَّرْداءِ » مُتَأَخِّرًا ، وَحَسُنَ إِسْلامُهُ ، وَشَهِدَ مَعَ الرَّسولِ القائِدِ غَزْوَةَ أُحُدٍ ، فَأَبْلى فيها بَلاءً حَسَنًا ، و وَظَّفَ كُلَّ إِمكاناتِهِ في سَبيلِ الذَّوْدِ عَنِ الإِسْلامِ ، وحِمايَةِ الرَّسولِ ﷺ ، حَتّى قالَ فيهِ : « نِعْمَ الفارِسُ عُوَيْمِرُ ! » ، ثُمَّ شَهِدَ بَعْدَ ذلِكَ كُلَّ الغَزَواتِ ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ ، ولَمْ يُقَصِّرْ في جِهادٍ .

ويَبْدو أَنَّ « أَبو الدَّرْداءِ » أَرادَ أَنْ يُعَوِّضَ ما فاتَهُ مِنْ خَيْرٍ ، فَأَجْهَدَ نَفْسَهُ في العِبادَةِ إِجْهادًا كَبيرًا ، حَتّى إِنَّ « سَلْمانَ الفارِسِيَّ » ذَهَبَ لِيَزورَهُ – وكانَ الرَّسولُ ﷺ قَدْ آخى بَيْنَهُما – فَوَجَدَ « أُمَّ الدَّرْداءِ » مُتَبَذِّلَةً ، لَمْ تُصْلِحْ شَأْنَها ولَمْ تُعْنَ بِأَمْرِها ؛ فَسَأَلَها عَنْ حالِها ، فَقالَتْ في حَسْرَةٍ وأَسًى :

« إنَّ أَخاكَ لَيسَ لَهُ في مَتاعِ الدُّنْيا رَغْبَةٌ ! »

فَدَخَلَ عَلَيْهِ « سَلْمانُ » وأَقامَ مَعَهُ حَتّى حانَ وَقْتُ الغَداءِ ، فَلَمّا قَدَّمَتْ « أُمُّ الدَّرْداءِ » الطَّعامَ ، لَمْ يَمُدَّ « أَبو الدَّرْداءِ » يَدَهُ إلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ سَلْمانُ :

« ما لَكَ لا تَأْكُلُ ؟ »

فَأَجابَهُ : « إنّي صائِمٌ . »

فَقالَ لَهُ سَلْمانُ : « عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَتُفْطِرَنَّ . »

فَأَفْطَرَ « أَبو الدَّرْداءِ » ، وتَناوَلَ مَعَ أَخيهِ طَعامَ الغَداءِ .

ورَأى « سَلْمانُ » بِبَصيرَتِهِ النّافِذَةِ أَنَّ مِنَ الخَيْرِ أَنْ يَبيتَ مَعَ أَخيهِ ، فَلَمّا صَلَّيا صَلاةَ العِشاءِ هَمَّ « أَبو الدَّرْداءِ » أَنْ يَقومَ لِيُصَلِّيَ ، فَقالَ لَهُ سَلْمانُ : « نَم الآنَ . »

وفي آخِرِ اللَّيْلِ حينَ اقْتَرَبَ الفَجْرُ أَيْقَظَهُ « سَلْمانُ » وقالَ لَهُ : « أَمّا الآنَ فَقُمْ . »

ثُمَّ قالَ لَهُ : « إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وإنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، وإنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، فَأَدِّ لِكُلِّ ذي حَقٍّ

حَقَّهُ . »

وما إنْ أَسْفَرَ الصُّبْحُ حَتّى انْطَلَقَ الرَّجُلانِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فَحَكى « أَبو الدَّرْداءِ » لِلرَّسولِ الكَريمِ ما حَدَثَ مِنْ « سَلْمانَ » ؛ فَأَقَرَّ الرَّسولُ الْمُعَلِّمُ صَنيعَ « سَلْمانَ » وقَوْلَهُ .

لَقَدْ أَرادَ « أَبو الدَّرْداءِ » أَنْ يَسْتَدْرِكَ ما فاتَهُ مِنْ خَيْرٍ ، فَلَزِمَ مَجْلِسَ الرَّسولِ ﷺ ، وأَقْبَلَ عَلى حِفْظِ القُرْآنِ الكَريمِ وتَدَبُّرِ آياتِهِ ، وتَطْبيقِ تَعاليمِهِ ، وأَكَبَّ عَلى العِلْمِ يَتَشَرَّبُهُ كَما تَتَشَرَّبُ الأَرْضُ العَطْشى قَطَراتِ الْمَطَرِ ، وطَفِقَ يَتَفَقَّهُ في الدّينِ ، ويَتَعَمَّقُ شَريعَتَهُ ، وأَعْرَضَ عَنْ زُخْرُفِ الحَياةِ الدُّنْيا وزينَتِها ، ودَفَعَها بِراحَتَيْهِ وصَدْرِهِ ، واكْتَفى مِنْها بِعيشَةٍ خَشِنَةٍ ، تَحْفَظُ عَلَيْهِ رَمَقَهُ ، وتُعينُهُ عَلى عِبادَتِهِ .

نَزَلَ بِهِ جَماعَةٌ في لَيْلَةٍ شَديدَةِ البَرْدِ ، فَقَدَّمَ إلَيْهِمْ طَعاماً ساخِناً ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُقَدِّمْ لَهُمْ غِطاءً يَلْتَحِفونَ بِهِ مِنَ البَرْدِ ، فَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في ذَلِكَ ، وقالوا : « لَعَلَّهُ

نَسِيَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنا بِاللُّحُفِ .. فَلْيَقُمْ أَحَدُنا لِيُكَلِّمَهُ ويَطْلُبَها مِنْهُ .»

وقامَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ ، فَلَمّا وَقَفَ عَلى بابِ حُجْرَتِه رَآهُ مُضْطَجِعًا وَامْرَأَتُهُ جالِسَةٌ إلى جِوارِهِ ، وعَلَيْهِما ثِيابٌ خَفيفَةٌ ، لا تَقي مِنَ البَرْدِ ، ولا تَرُدُّ غائِلَتَهُ ، فَقالَ لَهُ :

« ما أَراكَ بِتَّ إلا كَما نَبيتُ نَحْنُ ! أَيْنَ مَتاعُكُمْ ؟»

فَأَجابَهُ « أَبو الدَّرْداءِ » : « لَنا دارٌ أُخْرى نُرْسِلُ إِلَيْها مَتاعَنا ، ولَوْ كُنّا اسْتَبْقَيْنا شَيْئًا لَبَعَثْنا لَكُمْ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّ في طَريقِنا الَّذي نَسْلُكُهُ إلى تِلْكَ الدّارِ عَقَبَةً صَعْبَةً ، الْمُخِفُّ فيها خَيْرٌ مِنَ الْمُثْقَلِ ، فَأَرَدْنا أَنْ نَتَخَفَّفَ مِنْ مَتاعِنا لَعَلَّنا نَسْتَطيعُ اجْتِيازَ العَقَبَةِ ، وسُلوكَ الطَّريقِ ! هَلْ فَهِمْتَ ، يا أَخي ؟»

قالَ الرَّجُلُ : « أَجَلْ ، فَهِمْتُ ، وجَزاكَ اللهُ خَيْرًا .»

دَفَعَ « أَبو الدَّرْداءِ » الدُّنْيا بِراحَتَيْهِ وصَدْرِهِ ، فَهِيَ عِنْدَهُ مَتاعٌ زائِلٌ ، يَكْفيهِ مِنْها ما يَسُدُّ رَمَقَهُ ، ويُقيمُ أَوَدَهُ ،

ويُمْسِكُ حَياتَهُ ، ورَغِبَ فيما عِنْدَ اللهِ مِنْ مَتاعٍ دائِمٍ ، ونَعيمٍ مُقيمٍ ، وجَعَلَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَ الرَّسولِ ﷺ الَّذي سَمِعَهُ مِنْهُ : « لِيَكُنْ بَلاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيا كَزادِ راكِبٍ .»

ومِنْ ثَمَّ لَمْ يُقْبِلْ عَلى زينَتِها ، ولَمْ يَرْغَبْ في سُلْطانِها .

وحينَ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ رضي الله عنه في أَنْ يَتَوَلّى لَهُ عَمَلاً في الشّامِ - اعْتَذَرَ ولَمْ يَقْبَلْ ، ولَكِنَّ « عُمَرَ » أَصَرَّ وأَلْحَفَ ، فَلَمّا رَأى إِصْرارَهُ وإِلْحافَهُ قالَ لَهُ :

« إِنْ أَرَدْتَ مِنّي أَنْ أَذْهَبَ إلى الشّامِ فَأُعَلِّمَ النّاسَ كِتابَ اللهِ ، وأَعِظَهُمْ ، وأُصَلِّيَ بِهِمْ - فَعَلْتُ .»

فَرَضِيَ مِنْهُ « عُمَرُ » ذَلِكَ .

ذَهَبَ « أَبو الدَّرْداءِ » إلى الشّامِ فَهالَهُ ما رَأى وأَذْهَلَهُ !

رَأى النّاسَ قَدْ أَتْرَفَتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا ، وانْغَمَسوا في نَعيمِها ، وانْصَرَفوا إِلَيْها ، فَجَمَعَهُمْ في الْمَسْجِدِ ، و وَعَظَهُمْ وحَذَّرَهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الحَياةِ الدُّنْيا ونِسْيانِ الآخِرَةِ ، فَإِنَّهُمْ يَجْمَعونَ ما لا يَأْكُلونَ ، ويَبْنونَ ما لا يَسْكُنونَ ،

ويَشْغَلونَ أَنْفُسَهُمْ ويُجْهِدونَها فيما تَكَفَّلَ اللهُ لَهُمْ بِهِ ، ويَغْفَلونَ عَمّا أَمَرَهُمْ الاشْتِغالَ بِهِ .

فَبَكى النّاسُ حَتّى سُمِعَ نَشيجُهُمْ مِنْ خارِجِ الْمَسْجِدِ !

وأَقامَ « أَبو الدَّرْداءِ » في بِلادِ الشّام ، يَغْشى مَجالِسَ النّاسِ ، ويَمْشي في أَسْواقِهِمْ : يُعَلِّمُ جاهِلَهُمْ ، ويُجيبُ سائِلَهُمْ ، ويُذَكِّرُ غافِلَهُمْ ، ويَضْرِبُ لَهُمُ الْمَثَلَ والقُدْوَةَ .

مَرَّ في طَريقِهِ ذاتَ يَوْم على جَماعَةٍ قَدْ تَأَلَّبوا عَلى رَجُلٍ ، واجْتَمَعوا يَضْرِبونَهُ ويَسُبّونَهُ ، فَوَقَفَ وقالَ لَهُمْ : « ماذا تَصْنَعونَ ؟ »

فَقالوا : « لَقَدِ اقْتَرَفَ هَذا الرَّجُلُ ذَنْباً عَظيمًا . »

فَقالَ لَهُمْ « أَبو الدَّرْداءِ » : « أَ رَأَيْتُمْ لَوْ وَقَعَ هَذا الرَّجُلِ في بِئْرٍ . . ماذا كُنْتُمْ فاعِلينَ بِهِ ؟ »

قالوا جَميعًا : « كُنّا نُخْرِجُهُ مِنْها . »

فَقالَ لَهُمْ « أَبو الدَّرْداءِ » : « إذًا لا تَضْرِبوهُ ولا تَشْتُموهُ، وإنَّما بَصِّروهُ وعِظوهُ ، واحْمَدوا اللهَ أَنْ عافاكُمْ

مِنَ الوُقوعِ في الذَّنْبِ مِثْلَهُ . »

قالوا : « أَلا تُبْغِضُهُ ، يا أَبا الدَّرْداءِ ؟ »

قالَ : « بَلى ، إنَّني أُبْغِضُ فِعْلَهُ، فَإذا اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وتابَ مِنْ ذَنْبِهِ - فَهُوَ أَخي . »

فانْتَفَضَ الرَّجُلُ ، وأَخَذَ يَبْكي ويَنْتَحِبُ ، ويُعْلِنُ نَدَمَهُ وَتوْبَتَهُ !

وكانَ أَبو الدَّرْداءِ يَغْتَنِمُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِيُذَكِّرَ النّاسَ ويوصيَهُمْ ويَقولَ لَهُمْ : « لا تَزالونَ بِخَيْرٍ ما أَحْبَبْتُمْ خِيارَكُمْ ، وما قيلَ فيكُمُ الحَقُّ فَعَرَفْتُموهُ ؛ فَإنَّ عارِفَ الحَقِّ كَفاعِلِهِ !»

ويوصي شابّا سَأَلَهُ النَّصيحَةَ ، ويَقولُ لَهُ :

« يا بُنَيَّ ، كُنْ عالِمًا أو مُتَعَلِّمًا أَوْ سائِلاً ولا تَكُنِ الرّابِعَةَ فَتَهْلَكَ . » يَعْني لا تَكُنْ جاهِلاً .

ثُمَّ يَقولُ لَهُ : « يا بُنَيَّ ، اجْعَلِ الْمَسْجِدَ بَيْتَكَ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ : « الْمَساجِدُ بَيْتُ كُلِّ

تَقِيٍّ . »»

« يا بُنَيَّ ، اذْكُرِ اللهَ في السَّرّاءِ يَذْكُرْكَ في الضَّرّاءِ . »

وفي أَثْناءِ إقامَةِ « أَبي الدَّرْداءِ » في بِلادِ الشّام خَطَبَ إلَيْهِ مُعاوِيَةُ بْنُ أَبي سُفْيانَ - وكانَ والِيًا عَلى الشّام ، - ابْنَتَهُ « الدَّرْداءَ » لابْنِهِ « يَزيدَ » ، فَأَبى أَنْ يُزَوِّجَها ، وزَوَّجَها لِرَجُلٍ مِنْ عامَّةِ الْمُسْلِمينَ ، رَضِيَ دينَهُ وخُلُقَهُ !

فَتَحَدَّثَ الناسُ في ذَلِكَ ، وأَفاضوا في الحَديثِ ، وجَعَلوا يُبْدِئونَ ويُعيدونَ ، ويَقولونَ : رَفَضَ أَن يُزَوِّجَها لِيَزيدَ ابْنِ الوالي ، وزَوَّجَها لِرَجُلٍ من عامَّةِ الناسِ !

وتَجَرَّأَ بَعْضُهُمْ فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَب ، فَقالَ :

« لَقَدْ تَحَرَّيْتُ صَلاحَ أَمْرِ الدَّرْداءِ فيما صَنَعْتُ . »

قالوا : « وكَيْفَ ؟ »

قالَ : « أَ رَأَيْتُمُ الدَّرْداءَ ، وقَدْ سَكَنَتِ القُصورَ ، ولَبِسَتِ الحَريرَ ، وتَزَيَّنَتْ بالجَواهِرِ ، وقامَ العَبيدُ بَيْنَ يَدَيْها يَخْدِمونَها ويَكْفونَها أَمْرَها . . أَيْنَ يَذْهَبُ دينُها ؟ »

وكانَ « أَبو الدَّرْداءِ » صادِقًا مَعَ نَفْسِه ، وَفِيّا بِعَهْدِهِ مَعَ رَبِّهِ ، بارًّا بِإخْوَتِهِ في الدّينِ ، دائِمَ التَّذَكُّرِ لَهُمْ ، لا يَنْسى لَهُمْ فَضْلاً ، ولا يُنْقِصُ لَهُمْ وُدًّا ، فَكُلَّما لَقِيَهُ مُسْلِمٌ يَقْصِدُ الْمَدائِنَ ، بَعَثَ مَعَهُ بِهَدِيَّةٍ طَيِّبَةٍ إلى أَخيهِ « سَلْمانَ الفارِسِيِّ » .

وذاتَ يَوْمٍ دَخَلَ عَلى « سَلْمانَ » رَجُلانِ قادِمانِ مِنَ الشّام ، هُما : الأَشْعَثُ بْنُ قَيْس ، وعَبْدُ اللهِ البَجَلِيُّ ، وكانا لا يَعْرِفانِه ، فَقالا لَهُ : « أَ أَنْتَ سَلْمانُ الفارِسِيُّ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ . »

قالا : « أَ أَنْتَ صاحِبُ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟ »

قالَ : « لا أَدْري . »

فارْتابا في أَمْرِهِ ، ثُمَّ قالا : « لَعَلَّهُ لَيْسَ الرَّجُلُ الَّذي نُريدُ . »

وَهَمّا بالانْصِرافِ ، فَناداهُما « سَلْمانُ » وقالَ : « أَنا صاحِبُكُما الَّذي تُريدانِ ، إنّي قَدْ رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ

وجالَسْتُهُ ، لَكِنَّ صاحِبَهُ هُوَ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ الجَنَّةَ . . ما حاجَتُكُما ؟»

قالا : « جِئْناكَ مِنْ عِنْدِ أَخٍ لَكَ في الشّام - مِنْ عِنْدِ أَبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه . »

قالَ : « فَأَيْنَ هَدِيَّتُهُ الَّتي بَعَثَ بِها مَعَكُما ؟»

وأُسْقِطَ في يَدِ الرَّجُلَيْنِ ، ولَمْ يَعْرِفا كَيْفَ يُجيبانِ ، فَصاحِبُهُ لَمْ يَبْعَثْ مَعَهُما شَيْئًا ، فَقالا :

« لَمْ يُرْسِلْ مَعَنا شَيْئًا . »

قالَ سَلْمانُ : « اِتَّقِيا اللهَ ، وأَدِّيا الأَمانَةَ . ما جاءَني أَحَدٌ مِنْ عِنْدِهِ إلا ومَعَهُ هَدِيَّةٌ ثَمينَةٌ »

قالا : « هَذِهِ أَمْوالُنا فَاحْتَكِمْ فيها ، وخُذْ مِنْها ما تَشاءُ ، لَكِنَّ صاحِبَكَ لَمْ يُرْسِلْ مَعَنا هَدِيَّةً . »

قالَ : « لا أُريدُ أَمْوالَكُما ، إنَّما أُريدُ الهَدِيَّةَ فَحَسْبُ . »

فَحَلَفا لَهُ ، وأَغْلَظا في القَسَمِ ، ثُمَّ قالا لَهُ : « لَقَدْ قالَ

لَنا : ‹‹ إنَّ فيكُمْ رَجُلاً كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا خَلا بِهِ لَمْ يَبْغِ أَحَدًا سِواهُ ، فَإذا جِئْتُماهُ فَأَقْرِئاهُ مِنّي السّلامَ ›› . »

قالَ سَلْمانُ :

« فَأَيَّ هَدِيَّةٍ غَيْرَ هَذِهِ كُنْتُ أُريدُ مِنْكُما ؟ إنَّها أَفْضَلُ هَدِيَّةٍ ، تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةٌ طَيِّبَةٌ !»

فَتَنَفَّسَ الرَّجُلانِ الصُّعَداءَ ، وأَدْرَكا ما لِتَحِيَّةِ الإسْلامِ مِنْ جَلالٍ ، وما تَحْمِلُ مِنْ سَلامٍ وأَمانٍ !

***

عاشَ « أَبو الدَّرْداءِ » في دِمَشْقَ ، ما امْتَدَّتْ بِهِ الحَياةُ ، يَعِظُ النّاسَ ويُذَكِّرُهُمْ ، ويُحَذِّرُهُمْ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيا وزُخْرُفِها ، ويَكْتَفي مِنها بِالثَّوْبِ الخَشِنِ ، واللُّقْمَةِ الجافَّةِ ، حَتّى إنَّ أَميرَ الْمُؤْمِنينَ عُمَرَ رضي الله عنه زارَ بِلادَ الشّامِ ، يَتَفَقَّدُ أَحْوالَها ، فَأَرادَ أَنْ يَزورَ صاحِبَهُ « أَبا الدَّرْداءِ » ، فَسَعى إلى بَيْتِهِ ، فَإذا هُوَ بَيْتٌ مُظْلِمٌ بِغَيْرِ غَلَقٍ ، فَلَمّا أَحَسَّ بِهِ صاحِبُهُ قامَ إلَيْهِ ، وأَجْلَسَهُ ورَحَّبَ بِهِ ، وأَخَذا

يَتجاذَبانِ الحَديثَ ، وَكُلٌّ مِنْهُما لا يَرى صاحِبَهُ لِشِدَّةِ ما حَوْلَهُما مِنْ ظَلامٍ .

ومَدَّ « عُمَرُ » يَدَهُ فَجَسَّ وِسادَ « أَبي الدَّرْداءِ » ؛ فَإذا هُوَ بَرْذَعَةٌ ، وجَسَّ فِراشَهُ فَإذا هُوَ الحَصى ، وجَسَّ غِطاءَهُ فَإذا هُوَ ثَوْبٌ رَقيقٌ لا يُغْني شَيْئًا في بَرْدِ دِمَشْقَ القارِسِ ، فَقالَ لَهُ :

« يَرْحَمُكَ اللهُ ، يا أَبا الدَّرْداءِ . أَ لَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ في العَطاءِ ؟ أَ لَمْ أَبْعَثْ إلَيْكَ كَذا وكَذا ؟ »

فَأَجابَهُ « أَبو الدَّرْداءِ » :

« أَ تَذْكُرُ ، يا عُمَرُ ، ما حَدَّثَنا بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ ؟ »

قالَ عُمَرُ : « ماذا قالَ ﷺ ؟ »

قالَ أَبو الدَّرْداءِ : « أَ لَمْ يَقُلْ لَنا : « لِيَكُنْ بَلاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيا كَزادِ راكِبٍ . »

قالَ « عُمَرُ » : « بَلى . »

وبَكى عُمَرُ ، وبَكى أَبو الدَّرْداءِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُما) بُكاءً مَريرًا !

***

ولَمّا استَوْفى « أَبو الدَّرْداءِ » أَجَلَهُ ، وشاءَ اللهُ لِنَفْسِهِ أَنْ تَموتَ ، قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : « لَقِّنوني لا إلَهَ إلا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ . »

وظَلَّ يُرَدِّدُها حَتّى فاضَتْ روحُهُ إلى بارِئِها ! ودُفِنَ بِمَقْبَرَةِ البابِ الصَّغيرِ في دِمَشْقَ !

وبَعْدَ انْتِقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، رَأى أَحَدُ الصَّحابَةِ الَّذين كانوا يَسْكُنونَ دِمَشْقَ ، رُؤْيا طَيِّبَةً مُبَشِّرَةً - رَأى مَرْجًا أَخْضَرَ فَسيحًا ، مُتَرامِيَ الأَطْرافِ ، واسِعَ الأَرْجاءِ ، فيهِ قُبَّةٌ عَظيمَةٌ مِنَ الجِلْدِ ، وحَوْلَها غَنَمٌ رابِضَةٌ ، لَمْ تَشْهَدْ عَيْنُهُ مِثْلَها قَطُّ ، فَسَأَلَ : « لِمَنْ هَذا ؟ »

فَقيلَ لَهُ : « إنَّهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . »

ولَمْ يَلْبَثْ إلا قَليلاً حَتّى خَرَجَ عَلَيْهِ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ »

مِنَ القُبَّةِ ، وقالَ لَهُ :

« هَذا ما أَعْطانا اللهُ بالْقُرْآنِ . ولَوْ أَشْرَفْتَ عَلى هَذهِ الطَّريقِ – لَرَأَيْتَ ما لَمْ تَرَ عَيْنُكَ مِثْلَهُ ، ولَسَمِعْتَ ما لَمْ تَسْمَعْ مِثْلَهُ أُذُنُكَ ، ولَوَجَدْتَ ما لَمْ يَخْطِرْ لَكَ على بالٍ . »

فَقالَ الرَّجُلُ : « ولِمَنْ أُعِدَّ هَذا كُلُّهُ ؟ »

فَأَجابَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ :

« أَعَدَّهُ اللهُ – عَزَّ وَ جَلَّ – لأَبي الدَّرْداءِ ، لأَنَّهُ يَدْفَعُ الدُّنْيا بِراحَتَيْهِ وصَدْرِهِ ! »

***

فاتِحُ العِراقِ
سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ

لَمْ يَكُنْ « سَعْدٌ » قَدْ جاوَزَ السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ حينَ رَأى حُلْمًا عَجيبًا ، اهْتَزَّتْ لَهُ نَفْسُهُ اهْتِزازًا بالِغًا ، واضْطَرَبَ لَهُ قَلْبُهُ اضْطِرابًا شَديدًا ؛ فَقَدْ رَأى أَنَّهُ يَتَخَبَّطُ في ظُلُماتٍ كَثيفَةٍ ، حالِكَةِ السَّوادِ ، يَرْكَبُ بَعْضُها بَعْضًا ، ورَأى نَفْسَهُ يُحاوِلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِها فَلا يَجِدُ إلى الخُروجِ سَبيلاً ، ويَتَلَمَّسُ بَصيصًا مِنَ النّورِ يَهْديهِ فَلا يُبْصِرُ شَيْئًا . وفي أَثْناءِ هَذا الصِّراعِ القَوِيِّ العَنيفِ ، لاحَ لَهُ قَمَرٌ باهِرٌ مُنيرٌ ، فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ ، واهْتَدى بِهِ ، وسارَ مُتَّبِعًا لَهُ ، فَإِذا بِهِ يَجِدُ نَفَرًا قَدْ سَبَقوهُ إِلَيْهِ – كانوا « زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ » و « عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ » و « أَبا بَكْرٍ الصِّدّيقَ » .

صَحا « سَعْدٌ » مِنْ نَوْمِهِ ، مُهْتاجَ النَّفْسِ ، مُضْطَرِبَ الفُؤادِ ، يَتَلَهَّفُ على بُزوغِ الشَّمْسِ ؛ حَتّى يَبْحَثَ عَمَّنْ يَجِدُ عِنْدَهُ تأويلَ رُؤْياهُ ، وتَعْبيرَ حُلْمِهِ .

وكانَتْ تَرْبِطُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَبي بَكْرٍ مَوَدَّةٌ وأُلْفَةٌ ، وصَداقَةٌ ومَحَبَّةٌ ، فَما إنْ شَرَقَتِ الشَّمْسُ حَتّى أَسْرَعَ « سَعْدٌ » إِلَيْهِ ، يَبْسُطُ بَيْنَ يَدَيْهِ حُلْمَهُ ، ويَسْأَلُهُ تَفْسيرَهُ وتَعْبيرَهُ ، خاصَّةً وقَدْ رَآهُ يَسْبِقُهُ إلى القَمَرِ الْمُنيرِ .

قالَ لَهُ أَبو بَكْرٍ : « وَيْحَكَ ، يا سَعْدُ ! إنَّ حُلْمَكَ واضِحُ التَّعْبيرِ ، ظاهِرُ التَّفْسيرِ - فَالْقَمَرُ الْمُنيرُ مَوْجودٌ بَيْنَ أَظْهُرِنا ، وقَدْ سَبَقْتُكَ فِعْلاً إِلَيْهِ . »

قالَ سَعْدٌ : « لا أَفْهَمُ عَنْكَ اليَوْمَ ما تَقولُ ، وما عَهِدْتُكَ صاحِبَ أَلْغازٍ وأُحْجِياتٍ ، فَأَفْصِحْ عَمّا تُريدُ ، وأَوْضِحْ قَوْلَكَ . »

قالَ أَبو بَكْرٍ : « أَلا تَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قَدْ بَعَثَهُ اللهُ رَسولاً إلى العالَمينَ ، يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُماتِ الشِّرْكِ

والجَهالَةِ إلى نورِ التَّوْحيدِ والإيمانِ ؟ فَهُوَ يَدْعو إلى الإسْلامِ ، الَّذي يَنْبِذُ عِبادَةَ الأَصْنامِ ، ويَأْمُرُ بِعِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، ويَحُضُّ على مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، وجَميلِ الصِّفاتِ . »

قالَ سَعْدٌ : « إذًا ، هُوَ القَمَرُ الَّذي اهْتَدَيْتُ بِهِ ، و وَجَدْتُكَ وزَيْدًا وعَلِيًّا قَدْ سَبَقْتُموني إِلَيْهِ . »

قالَ أَبو بَكْرٍ : « أَجَلْ ، هُوَ . هَيّا نَذْهَبْ إِلَيْهِ . »

والْتَقى « سَعْدٌ » رَسولَ اللهِ ﷺ ، وأَعْلَنَ بَيْنَ يَدَيْهِ إسْلامَهُ . وفَرِحَ « سَعْدٌ » بِإسْلامِهِ فَرَحًا شَديدًا ، وكَثيرًا ما كانَ يَقولُ مُفْتَخِرًا : « لَقَدْ رَأَيْتُني سَبْعَةَ أَيّامٍ وأَنا ثُلُثُ الإسْلامِ . »

وكَما فَرِحَ « سَعْدٌ » بِإسْلامِهِ - فَرِحَ بِهِ كَذَلِكَ الرَّسولُ ﷺ ؛ فَقَدْ كانَ « سَعْدٌ » شابًّا فَتِيًّا تَلوحُ عَلَيْهِ أَماراتُ النَّجابَةِ والذَّكاءِ ، ويُبَشِّرُ سُلوكُهُ وتَصَرُّفاتُهُ بِأَنَّهُ سَيَكونُ لَهُ شَأْنٌ عَظيمٌ ، فَقَدْ كانَ لا يَحْفِلُ بِما يَصْطَنِعُ أَتْرابُهُ مِنْ

لَهْوٍ ، ولا يَميلُ إلى ما يَميلونَ إلَيْهِ مِنْ عَبَثٍ ، بَلْ كانَ يَقْضي وَقْتَ فَراغِهِ في بَرْيِ السِّهامِ ، وإعْدادِها وإصْلاحِها ، وتَسْوِيَةِ الأَقْواسِ الَّتي يُرمى بها ، والتَّدَرُّبِ عَلى الرَّمْيِ وإحْكامِ التَّصْويبِ ، وكَأَنَّما كانَ هَذا الفَتى يَنْظُرُ بِظَهْرِ الغَيْبِ ، ويُعِدُّ نَفْسَهُ إعْدادًا قَوِيًّا سَليمًا لأَمْرٍ عَظيمٍ !

كَما أَنَّهُ مِنْ بَني زُهْرَةَ ، وهُمْ قَوْمُ « آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ » أُمِّ الرَّسولِ ﷺ ، فَهُوَ إذًا مِنْ أَخْوالِهِ . وقَدْ حَدَثَ أَنْ رَآهُ الرَّسولُ ﷺ مُقْبِلاً ، فَقالَ لأَصْحابِهِ : « هَذا خالي فَلْيُرِيني امْرُؤٌ خالَهُ !»

وهَذا النَّسَبُ الكَريمُ ، والحَسَبُ العَزيزُ - قد يُغْري بَعْضَ فِتيانِ قُرَيْشٍ ، فَيَقْتَدونَ بِـ « سَعْدٍ » ، ويَسْلُكونَ طَريقَهُ ، ويُؤْمِنونَ بِما آمَنَ بِهِ !

بَيْدَ أَنَّ فَرْحَةَ « سَعْدٍ » بإسْلامِهِ قَدْ شابَها ما يُعَكِّرُ صَفْوَها ، ويُكَدِّرُ بَهاءَها - فَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّهُ بإسْلامِهِ ، وكانَ لَها مُحِبًا ، وبِها بَرًّا حَفِيًّا ، فَقالَتْ لَهُ :

« ما هَذا الدّينُ الَّذي سَمِعْتُ أَنَّكَ اعْتَنَقْتَهُ يا سَعْدُ ؟»

فَأَجابَها « سَعْدٌ » في تَلَطُّفٍ وتَحَبُّبٍ ، ولَعَلَّهُ طَمِعَ في إسْلامِها : « إنَّهُ دينٌ يَدْعو إلى الخَيْرِ ، ويَحُضُّ على مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، ويَأْمُرُ بِعِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، خالِقِ الكَوْنِ ، ومُدَبِّرِ الأَمْرِ فيهِ . »

قالَتْ : « وتَرَكْتَ دينَ أَبيكَ وأُمِّكَ مِنْ أَجْلِهِ ؟»

قالَ « سَعْدٌ » : « يا أُمّاهُ ، إنَّهُ الحَقُّ والنّورُ . »

فَلَمْ تَدَعْهُ يُكْمِلُ قَوْلَهُ ، وبادَرَتْهُ في عُنْفٍ :

« واللهِ ، لَتَدَعَنَّ هَذا الدّينَ ، وتَعودَنَّ إلى دينِ آبائِكَ ، أَوْ لأَجْتَنِبَنَّ الطَّعامَ والشَّرابَ حَتّى أَموتَ ، فَتَنْدَمَ عَلى فَعْلَتِكَ ، ويُعَيِّرَكَ النّاسُ بِها طولَ الزَّمَنِ !»

فَقالَ لَها « سَعْدٌ » : « يا أُمّاهُ ، لا تَفْعَلي ؛ فَلَنْ أَتْرُكَ الدّينَ الَّذي أَضاءَ نَفْسي . »

ولَكِنَّها لَمْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِ ، وأَصَرَّتْ عَلى قَوْلِها ، ولَزِمَتْ دارَها ، ونَفَّذَتْ وَعيدَها ، فَأَضْرَبَتْ عَنِ الطَّعامِ

والشَّراب ، حتّى هُزِلَ جِسْمُها ، وشَحَبَ لَوْنُها ، و وَهَنَتْ قُوَّتُها ، وكادَت تهْلِكُ !

وكانَ « سَعْدٌ » يَتَسَمَّعُ أَنْباءَها ، ويَتَلَقَّطُ أَخْبارَها ، فَيَتفَطَّرُ قَلْبُهُ أَسًى عَلَيْها ! ولَكِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ قَطُّ في النُّزول عِنْدَ رَأْيِها ، والعَوْدَةِ إلى الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلام ، وتَذَوَّقَ قَلْبُهُ حَلاوَةَ الإيمان :

وذاتَ يَوْم سَعى إلَيْها ، ورَجاها أَنْ تَتَبَلَّغَ بشَيْءٍ مِنَ الطَّعام والشَّراب ، فَأَبَتْ إباءً شَديدًا ، وعَنَّفَتْهُ تَعْنيفًا مُرًّا، فَقالَ لَها في هُدوءٍ وحَزْم : « يا أُمّاهُ ، تَعْلَمينَ أَنَّني شَديدُ الحُبِّ لَكِ ، ولَكِنّي أَشَدُّ حُبًّا للهِ ورَسولِهِ . واللهِ ، لو كانَتْ لَكِ أَلْفُ نَفْس فَخَرَجَتْ مِنْكِ واحِدَةً بَعْدَ واحِدَةٍ – ما تَرَكْتُ ديني الَّذي آمَنْتُ بِهِ . »

عِنْدَئذٍ أَيْقَنَتْ أَنَّ اجْتِنابَها الطَّعامَ والشَّرابَ لَنْ يُجْدِيَ شَيْئًا ، وأَنَّ ابْنَها جادٌّ كُلَّ الجِدِّ فيما مَضى فيهِ ، فَأَظْهَرَتْ إذْعانَها لِلأَمْرِ ، وأَكَلَتْ وشَرِبَتْ ، وهِيَ كارِهَةٌ ضائِقَةُ الصَّدْرِ ، شَديدَةُ الحُزْنِ .

وأَنْزَلَ اللهُ في شَأْنِ « سَعْد » وأُمِّهِ قُرْآنًا يُتْلى ، وتَشْريعًا لِلنّاسِ أَجْمَعينَ – فَطابَتْ بِذَلِكَ نَفْسُهُ ، واسْتَقَرَّ خاطِرُهُ ، وهَدَأَ بالُهُ عِنْدَما سَمِعَ قَوْلَ اللهِ : ﴿ و وَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ (١) وَفِصالُهُ (٢) في عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصيرُ . وإِنْ جاهَداكَ (٣) عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْروفًا ، وَاتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أَنابَ (٤) إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ . ﴾ (لقمان : ١٤ ، ١٥) .

ولَمْ تَكُنْ عَوْدَةُ « حَمْنَةَ » أُمِّ سَعْدٍ إلى الطَّعام اسْتِسْلامًا مِنْها ، بَلْ كانَتْ تَرْغَبُ في اسْتِعادَةِ قُوَّتِها ونَشاطِها ؛ لِتَسْتَطيعَ مُقاوَمَةَ ابْنِها ومُناهَضَتَهُ .

يَقولُ « سَعْدٌ » : « عُدْتُ يَوْمًا إلى البَيْتِ فَوَجَدْتُ أُمّي أَمامَ البابِ ، فَلَمّا رَأَتْني صاحَتْ : « أَ لا مِنْ أَعوانِ

(١) الوَهْنُ : الضَّعْفُ . (٢) الفِصالُ : الفِطامُ .
(٣) جاهَداك : دَفَعاك بقُوَّة وشِدَّة . (٤) أناب : رجع وأَخْلَصَ .

يُعيلونَني عَلى سَعْدٍ مِنْ عَشيرَتِهِ أَوْ مِنْ عَشيرَتي ، فَأَحْبِسَهُ فِي البَيْتِ حَتّى يَموتَ أَوْ يَدَعَ هَذا الدِّينَ ؟›› فَأَسْرَعْتُ راجِعًا ، وابْتَعَدْتُ عَنِ الدّارِ ، كَيْلا أَصْطَدِمَ بِها ، ثُمَّ بَعَثَتْ إِلَيَّ ، فَرَجَعْتُ إِلَيْها ، فَكانَتْ تَلْقاني تارَةً بِالهُدوءِ ، وتارَةً بِالشَّرِّ والهُجومِ ، فَما أَقْسى ما احْتَمَلْتُ مِنْ أَقْرَبِ النّاسِ إِلَيَّ !»

أَبْلى « سَعْدٌ » في سَبيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ بَلاءً حَسَنًا مُنْذُ إِسْلامِهِ ، وكانَتْ لَهُ أَوْلَوِيّاتٌ سَجَّلَها التّاريخُ في صَفَحاتٍ مُشْرِقَةٍ وَضيئَةٍ ، ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ يُصَلّي هُوَ وجَماعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمينَ ذاتَ يَوْمٍ في شِعْبٍ مِنْ شِعابِ مَكَّةَ ، فَسَمِعَ الْمُشْرِكونَ بِذَلِكَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَبو سُفْيانَ ومَعَهُ جَماعَةٌ، مِنْهُمْ « عَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ » ، فَعابوهُمْ وسَفَّهوا فِعْلَهُمْ وصَلاتَهُمْ ، وتَجاوَزوا فَآذَوْهُمْ بِأَيْديهِمْ ، وكانَ ابْنُ خَطَلٍ أَكْثَرَهُمْ إِيذاءً ، فَلَمْ تَحْتَمِلْ شَجاعَةُ « سَعْدٍ » ما حَدَثَ ، فَما كانَ مِنْهُ إِلا أَنْ رَمى « ابْنَ خَطَلٍ » بِعَظْمَةٍ كانَتْ بِجِوارِهِ ، فَشَجَّ رَأْسَهُ ، وأَسالَ دَمَهُ ، فَكانَ

أَوَّلَ مَنْ أَسالَ دَمًا في تاريخِ الْمُسْلِمينَ !

وخَرَجَ في سَرِيَّةٍ يَقودُها « عُبَيْدُ بْنُ الحارِثِ » لاسْتِطْلاعِ أَخْبارِ قُرَيْش ، فَصادَفَتِ السَّرِيَّةُ جَماعَةً مِنْ قُرَيْش ، أَخَذوا يَتَحَرَّشونَ بِها ، ويَتَعالَوْنَ عَلَيْها ، فَلَمْ تُطِقْ نَفْسُ « سَعْد » هَذا التَّعالِيَ ، فَما كانَ مِنْهُ إِلا أَنْ أَعَدَّ سِهامَهُ ، وأَطْلَقَها عَلى الْمُشْرِكينَ ، فَارْتَدّوا عَلى أَعْقابِهِمْ مَدْحورينَ ، فَكانَ أَوَّلَ مَنْ رَمى سَهْمًا في سَبيلِ اللهِ !

وتَقولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) : « ذاتَ لَيْلَةٍ أَحَسَّ الرَّسولُ ﷺ بِشَيْءٍ مِنَ الخَطَرِ ، فَقالَ : ‹‹ لَيْتَ رَجُلاً صالِحًا مِنْ أَصْحابي يَأْتي لِيَحْرُسَني اللَّيْلَةَ . ›› وبَيْنَما نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنا خَشْخَشَةَ سِلاحٍ ، فَقالَ الرَّسولُ ﷺ : ‹‹ مَنْ ؟›› فَجاءَ الجَوابُ : ‹‹ أَنا سَعْدٌ .›› فَقالَ الرَّسولُ ﷺ : ‹‹ وما جاءَ بِكَ السّاعَةَ ؟›› قالَ ‹‹ سَعْدٌ ›› : ‹‹ وَقَعَ في نَفْسي خَوْفٌ عَلَيْكَ ، فَجِئْتُ أَحْرُسُكَ . ›› فَدَعا لَهُ الرَّسولُ ﷺ ونامَ وهُوَ مُطْمَئِنُّ البالِ ، هادِئُ النَّفْسِ . »

وفي غَزْوَةِ بَدْرٍ كانَ لَهُ دَوْرٌ مَشْهودٌ ، وكانَ مَعَهُ أَخوهُ « عُمَيْرٌ » ؛ فَخَلَّفَهُ شَهيدًا في أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، واحْتَسَبَهُ عِنْدَ اللهِ ، وكانَ « عُمَيْرٌ » هَذا صَغيرَ السِّنِّ ، لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ . وحينَ أَخَذَ الرَّسولُ القائِدُ يَعْرِضُ الجَيْشَ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ ، تَوارى « عُمَيْرٌ » ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَراهُ الرَّسولُ القائِدُ فَيَرُدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، ولَكِنَّ الرَّسولَ القائِدَ أَبْصَرَهُ فَرَدَّهُ ، فَبَكى « عُمَيْرٌ » بُكاءً شَديدًا ، فَرَقَّ لَهُ قَلْبُ الرَّسولِ القائِدِ وأَجازَهُ .

وفي غَزْوَةِ أُحُدٍ ، حينَ زُلْزِلَتِ الأَقْدامُ ، و وَلّى كَثيرٌ مِنَ الْمُسْلِمينَ الأَدْبارَ - وَقَفَ « سَعْدٌ » وَقْفَةَ بَطَلٍ مِغْوارٍ أَمامَ الرَّسولِ ﷺ ، يَحْميهِ بِنَفْسِهِ ، ويَصُدُّ عَنْهُ الأَعْداءَ ، ويَرْميهِمْ بِسِهامِهِ ، وهُوَ يَدْعو : « اللَّهُمَّ سَهْمَكَ فارْمِ بِهِ عَدُوَّكَ . » وكانَ الرَّسولُ القائِدُ يُؤَيِّدُ « سَعْدًا » ويَقولُ : « اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ ، اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ ، وأَجِبْ دَعْوَتَهُ . » فَكانَ لا يَرْمي سَهْمًا إلا أَصابَ مُشْرِكًا .

وشَهِدَ « سَعْدٌ » الغَزَواتِ كُلَّها تَحْتَ لِواءِ الرَّسولِ

القائِدِ ، فَكانَ البَطَلَ الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، والفارِسَ الَّذي يُمَزِّقُ صُفوفَ الأَعْداءِ ، ويُبَدِّدُ شَمْلَهُمْ ، ويُرْدي فُرْسانَهُمْ ، حَتّى انْتَقَلَ الرَّسولُ القائِدُ إلى بارِئِهِ ، وهُوَ عَنْهُ راضٍ ، ومُبَشِّرٌ لَهُ بِالْجَنَّةِ . رُوِيَ أَنَّ الرَّسولَ ﷺ كانَ جالِسًا يَوْمًا مَعَ بَعْضِ أَصْحابِهِ ، يُحَدِّثُهُمْ ويُعَلِّمُهُمْ ، ثُمَّ صَمَتَ ونَظَرَ إلى الفَضاءِ كَأَنَّما يَتَلَقّى وَحْيًا ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى أَصْحابِهِ ، وقالَ : « يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ . » وأَخَذَ الصَّحابَةُ يَتَلَفَّتونَ يَمينًا وشِمالاً ، ويَتَطَلَّعونَ هُنا وهُناكَ ؛ لِيَرَوْا ذاكَ الَّذي اتَّجَهَتْ إلَيْهِ البُشْرى السَّعيدَةُ ، وبَعْدَ قَليلٍ مِنَ التَّرَقُّبِ والانْتِظارِ ، طَلَعَ عَلَيْهِمْ « سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ » .

وقالَ لَهُ مَرَّةً عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : « أَ لا تَدُلُّني عَلى ما تَتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ مِنْ عِبادَةٍ وعَمَلٍ ؟»

فَأَجابَهُ « سَعْدٌ » : « لا شَيْءَ أَكْثَرَ مِمّا نَعْمَلُ جَميعًا ؛ عِبادَةً وسُلوكًا ، غَيْرَ أَنّي لا أَحْمِلُ ضِغْنًا ولا حِقْدًا لأَحَدٍ !»

وبَلَغَتْ مواقِفُ « سَعْد » وبُطولَتُهُ ذِرْوَتَها في عَهْدِ عُمَرَ ابْنِ الخَطّاب ، فَقَدْ كانَ الفُرْسُ يُهَدِّدونَ الْمُسْلِمينَ ، ويَتَوَعَّدونَهُمْ ؛ فَأَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ إلى الوُلاةِ في الأَقاليمِ ، يَأْمُرُهُمْ أَنْ يُمِدّوهُ بِكُلِّ قادِرٍ عَلى حَمْلِ السِّلاحِ ، لِمُواجَهَةِ الفُرْسِ . وفَكَّرَ « عُمَرُ » في أَنْ يَقودَ الجَيْشَ بِنَفْسِهِ ، واسْتَشارَ الصَّحابَةَ في ذَلِكَ ، فَلَمْ يُوافِقوهُ ، وطَلَبوا إلَيْهِ أَنْ يَخْتارَ مِنْ بَيْنِ الجُنودِ قائِدًا قادِرًا ، خَبيرًا بِفُنونِ الحَرْبِ ، غَيْرَ هَيّابٍ ولا وَجِلٍ . وبَيْنَما هُمْ يُفَكِّرونَ في الرَّجُلِ الَّذي يَصْلُحُ لِهَذِهِ القِيادَةِ ، ويُقَلِّبونَ الأَمْرَ عَلى وُجوهِهِ الْمُخْتَلِفَةِ - إذْ جاءَتْ رِسالَةٌ مِنْ « سَعْد ابْنِ أَبي وَقّاص » ، وكانَ والِيًا عَلى هُوازِنَ ، تَقولُ لأَميرِ الْمُؤْمِنينَ : إنَّهُ بَعَثَ إلَيْهِ بِجَماعَةٍ مِنَ الأَبْطالِ ، كُلُّهُمْ أَهْلُ نَجْدَةٍ ورَأْيٍ . وحينَئِذٍ صاحَ بِهِ الصَّحابَةُ : « لَقَدْ وَجَدْنا القائِدَ ! »

فَقالَ عُمَرُ : « مَنْ هُوَ يَرْحَمْكُمُ اللهُ ؟ »

قالوا : « إنَّهُ الأَسَدُ عادِيًا ، سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ ! »

واسْتَدْعاهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، و وَلاهُ قِيادَةَ الجَيْشِ الزّاحِفِ إلى الفُرْسِ ، لِيَخوضَ حَرْبًا تَجْتَثُّ جُذورَ الوَثَنِيَّةِ مِنْ أَرْضِ فارِسَ ، وتَثُلُّ عَرْشَ مُلْكِهِمْ .

وحينَ فَصَلَ الجَيْشُ عَنِ الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وكانَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ في تَوْديعِهِ ؛ أَوْصى سَعْدًا ، وقالَ لَهُ :

« يا سَعْدُ ، لا يَغُرَّنَّكَ أَنْ قيلَ : خالُ رَسولِ اللهِ وصاحِبُهُ ، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إلا بِطاعَتِهِ ، والنّاسُ شَريفُهُمْ و وَضيعُهُمْ عِنْدَ اللهِ سَواءٌ ، لا يَتَفاضَلونَ إلا بِالتَّقْوى والعَمَلِ الصّالِحِ .

« إنَّكُمْ تُنْصَرونَ عَلى أَعْدائِكُمْ بِطاعَتِكُمْ للهِ ومَعْصِيَتِهِمْ لَهُ - فَالْزَموا حُدودَهُ ، واجْعَلْني بِكُتُبِكَ كَأَنّي أَنْظُرُ إلَيْكُمْ . »

وأَوْصاهُ أَنْ يَتَرَفَّقَ بِالْمُسْلِمينَ في سَيْرِهِمْ ، وأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ يَوْمًا يَسْتَريحونَ فيهِ ويَرُمّونَ أَسْلِحَتَهُمْ ، حَتّى يَصِلوا إلى العَدُوِّ ولَمْ يُنْهِكْهُمُ السَّفَرُ ، ولَمْ يُضْعِفْهُمُ الْمَسيرُ .

كَما أَوْصاهُ أَنْ يَبُثَّ العُيونُ ، ويُرْسِلَ الطَّلائِعَ ؛ لِيَكونَ عَلى دِرايَةٍ بِأَحْوالِ عَدُوِّهِ ، وحَتّى لا يُؤْخَذَ عَلى غِرَّةٍ مِنْهُ وغَفْلَةٍ ، وأَنْ يَخْتارَ مُعاوِنيهِ مِمَّنْ لَهُمْ في الإِسْلامِ سابِقَةٌ ، ولَهُمْ في القِتالِ جُرْأَةٌ ، ولَهُمْ في الحَرْبِ خِبْرَةٌ ودِرايَةٌ .

وانْطَلَقَ الجَيْشُ الزّاحِفُ إِلى بِلادِ الفُرْسِ ، وفيهِ مِنَ الصَّحابَةِ الَّذينَ شَهِدوا بَدْرًا تِسْعَةٌ وتِسْعونَ ، ومِنْ غَيْرِهِمْ ثَلاثُمائَةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ صَحابِيًّا غَيْرُهُمْ ، وثَلاثُمائَةٍ مِنَ الَّذينَ شَهِدوا مَعَ الرَّسولِ ﷺ فَتْحَ مَكَّةَ ، وسَبْعُمائَةٍ مِنْ أَبْناءِ الصَّحابَةِ (رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ) أَجْمَعينَ .

انْطَلَقَ لِيُخْرِجَ أَهْلَ فارِسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النّورِ ، مِنْ عِبادَةِ الشِّرْكِ إِلى عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، ومِنْ ضيقِ الدُّنْيا إِلى سَعَتِها ، ومِنْ جَوْرِ الحُكّامِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ .

وعَسْكَرَ « سَعْدٌ » بِجَيْشِهِ في القادِسِيَّةِ ، وكانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الفُرْسِ مَبْعوثونَ ، ولَكِنَّ الفُرْسَ لَمْ يَسْتَجيبوا لِما عَرَضَهُ المُسْلِمونَ عَلَيْهِمْ ، بَلْ كانوا يَسْخَرونَ مِنْهُمْ ومِنْ جَيْشِهِمْ . وحينَ بَدَأَتْ بَعْضُ المُناوَشاتِ ، وكانَ

المُسْلِمونَ يَرْمونَ الفُرْسَ بِالنِّبالِ ، كانَ الفُرْسُ يُمْعِنونَ في السُّخْرِيَةِ والاسْتِهْزاءِ ، ويَقولونَ : « دوك – دوك . » (أَيْ مَغازِلُ) ، فَهُمْ يُشَبِّهونَ نِبالَ المُسْلِمينَ بِالمَغازِلِ الَّتي لا تُجْدي في الحَرْبِ فَتيلاً ، ولا تُغْني غَناءً ، ولَكِنَّ هَذِهِ المَغازِلَ ما زالَتْ بِالفُرْسِ حَتّى قَضَتْ عَلَيْهِمْ .

دامَتْ مَعْرَكَةُ القادِسِيَّةِ أَرْبَعَةَ أَيّامٍ ، والحَرْبُ فيها سِجالٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ والفُرْسِ . وفي اليَوْمِ الرّابِعِ عَزَمَ المُسْلِمونَ عَلى أَنْ تَكونَ الضَّرْبَةُ فيهِ قاضِيَةً ، وأَنْ يَكونَ القِتالُ فيهِ ماحِقًا لِلْفُرْسِ ، فَأَحاطوا بِجَيْشِ الفُرْسِ ، ونَفَذوا إِلَيْهِ مِنْ صَوْبٍ ، ولَمَعَتِ السُّيوفُ ، وطَعَنَتِ الرِّماحُ ، فَما كانَ يُسْمَعُ صَوْتٌ غَيْرُ صَوْتِ السِّلاحِ ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ هَذا اليَوْمُ « يَوْمَ الهَريرِ » . وما هِيَ إِلا لَحَظاتٌ حَتّى رَأى جُنودُ الفُرْسِ رَأْسَ قائِدِهِمْ « رُسْتُم » مَرْفوعًا عَلى أَسِنَّةِ الرِّماحِ ؛ فَدَبَّ الرُّعْبُ في قُلوبِهِمْ ، واسْتَوْلى الجَزَعُ عَلى نُفوسِهِمْ – فَفَرَّ مِنْهُمْ مَنِ اسْتَطاعَ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً ، وقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَجِدْ طَريقًا لِلْهَرَبِ

والفِرارِ ، وغَنِمَ الْمُسْلِمونَ غَنائِمَ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى !

وكانَ « عُمَرُ » رضي الله عنه مَشْغولاً بِمَوْقِعَةِ القادِسِيَّةِ ، فَيَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ إلى ظاهِرِ الْمَدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، مِمّا يلي طَريقَ العِراقِ ، يَتَنَسَّمُ أَخْبارَ الْمَعْرَكَةِ ، ويَسْأَلُ القادِمينَ إلى الْمَدينَةِ عَمّا سَمِعوهُ مِنْ أَنْباءٍ .

وبَيْنَما هُوَ في إحْدى غَدَواتِهِ الاسْتِخْبارِيَّةِ هَذِهِ – إذا بِراكِبٍ يَرْكُضُ بناقَتِهِ نَحْوَ الْمَدينَةِ ، فَأَسْرَعَ نَحْوَهُ « عُمَرُ » وقالَ : « مِنْ أَيْنَ أَنْتَ قادِمٌ ، يا عَبْدَ اللهِ ؟ »

فَأَجابَهُ الرّاكِبُ دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إلَيْهِ ، أَوْ يُهَدِّئَ مِنْ سُرْعَةِ ناقَتِهِ : « مِنَ القادِسِيَّةِ . »

قالَ عُمَرُ : « حَدِّثْني عَنْ أَخْبارِها ! »

فَأَجابَهُ الرّاكِبُ ، وهُوَ في سُرْعَتِهِ : « هَزَمَ اللهُ العَدُوَّ ! »

قالَ عُمَرُ : « زِدْني ، رَحِمَكَ اللهُ ! »

وأَخَذَ الرّاكِبُ يَقُصُّ عَلى « عُمَرَ » وَقائِعَ الْمَعْرَكَةِ وأَحْداثَها وبَلاءَ الْمُسْلِمينَ فيها ، و « عُمَرُ » يُسْرِعُ السَّيْرَ

مَعَهُ ، ويَجْري وَيَخُبُّ بِإزائِهِ – حَتّى دَخَلا الْمَدينَةَ ، فَرَأى الرَّجُلُ النّاسَ يَلْتَفِتونَ إلى « عُمَرَ » ، ويُحَيّونَهُ بِتَحِيَّةِ الخِلافَةِ ، فَذُهِلَ وقالَ : « يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، هَلا أَخْبَرْتَني ! فَما جِئْتُ إلا مِنْ أَجْلِكَ . »

قالَ « عُمَرُ » مُهَدِّئًا مِنْ رَوْعِ الرَّجُلِ ، ومُتَلَطِّفًا مَعَهُ :

« لا عَلَيْكَ يا أَخي ، يَكْفي أَنَّكَ البَشيرُ ! »

***

عُمِّرَ « سَعْدٌ » طَويلاً ، فَقَدْ كانَتْ وَفاتُهُ في العامِ الرّابِعِ والخَمْسينَ مِنَ الهِجْرَةِ ، وأَفاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ المالِ الكَثيرَ ، ورَزَقَهُ عَدَدًا مِنَ البَنينَ والبَناتِ ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُ بِنْتٍ واحِدَةٍ في عامِ الفَتْحِ ، وكانَ آخِرَ مَنْ تُوُفِّيَ مِنَ الصَّحابَةِ الْمُهاجِرينَ . وحينَ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ أَمَرَ أَحَدَ أَبْنائِهِ أَنْ يَفْتَحَ خِزانَةً كانَتْ مُغْلَقَةً ، فَإذا فيها جُبَّةٌ قَديمَةٌ ، فَقالَ لَهُمْ : « كَفِّنوني بِها ؛ فَإنَّها ثَوْبٌ لَقيتُ بِهِ الْمُشْرِكينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وأَرْجو أَنْ أَلْقى اللهَ فيهِ . »

المحتويات

رياض الإيمان

سلسلة تربوية تثقيفية إسلامية

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

١- المولد والنشأة
٢- الرسول في المدينة
٣- الفتح والوفاة
٤- حاضنة الإسلام
٥- سابق الحبشة
٦- صديق القرآن
٧- الشهيد الحي
٨- الباحث عن الحق
٩- أم حبيبة
١٠- الراكب المهاجر
١١- حواريّ الرَّسول
١٢- صاحب الخدعة
١٣- فاتح مصر
١٤- أمين الأمَّة
١٥- الشَّهيد الطَّائر

01R160612

مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصريَّة العالميَّة للنشر - لونجمان